عيد ميلاد العذراء

عيد ميلاد العذراء

رواية

هاني خليفة

اسم الكتاب: عيد ميلاد العذراء
اسم الكاتب: هاني خليفة
تدقيق لغوي: عبده عبدالواحد
تصميم الغلاف: السيد كلاكيت - وجيه ياسر أبو عادي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – ديسمبر ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 27844

١١٤ ع جنوب الأحياء – السادس من أكتوبر
Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إهداء الإهداءات

إلـى أمـي..

لقد هداني قلبي وصار لدى يقين أن دعوة خاشعة خرجت من لسان صدق وقلب ينبض بالإخلاص صعدت سريعاً إلى السماء، ومن رحمة الله أن تعطّف علينا واستجاب. آه يا أماه لو تعلمين ماذا أصابنا في أيام عجافنا الأخيرة. حقاً يا سيدتي، لقد كانت ذروة المحنة وأقسى اختبار مرّ علينا في هذه الحياة.

أتعلمين يا حبيبتي أن جدران البيت قد فارقتنا وأبت العودة إلا بعودتك وأن مكانك حيث تتكئين وتجلسين يسألني عنك في جوف الليل حينما كنت أتعمّد البكاء وأنا أسأله لعله يجيب؟ هل تعلمين أنني كنت ساذجاً في تقدير محبة الآخرين لكِ؟ ربما لأنني قد عشت عمري كله أحبك وأجهل حب الآخرين.

صلواتي وتوسلاتي ومناجاتي لرب العالمين لن تكفي هذا الفضل الذي غمرنا به، وحبي وتقديري وامتناني لمن ساندونا لن يكفي لرد الجميل الذي طوقونا به.

كنت أظن أنكِ أهم ما في الحياة، لكنني أدركت جهلي حينما تيقنت أنكِ كل الحياة، دمتِ يا تاج رؤوسنا في حياتنا نعمة.

هاني & شريف & وليد

عمى أ. عبدالله خليفة

أعترف أنني قد أُنصفت حينما أخذت منك وعنك أشياءً لها قيمة، شريان الفكر الذى مر منك إلى شخصي فصرت أدرك أن التميز واجب إن كنت أهلاً لذلك وأن التفرد حق إن استحققت ذلك.

أدركت بقربى منك كيف ينجز الإنسان أعمالاً تليق بمجتمع أفخم من الذى يقطن به وأن حدود مجتمعك الذى تحيا فيه تستحق أعظم أحلامك حتى وإن بدا الإنجاز أقرب إلى المستحيل.

دمت أصيلاً تجنى ثمار طيب اللقمة الحلال والصبر في جميع في جميع الأحوال قابضاً على عز أبيك وأهلك.

عمى أ.د عزت عبد الشافي

علمتنا وتعلمنا عنك ومنك في كل خطوة خطوناها بصحبتك، وأهم ما ترسّخ في أذهاننا وفى قلوبنا من حسن صحبتك أن الصلة الوثيقة بالدين لابد أن تُترجم إلى أفعال يؤديها صاحبها على أكمل وجه كي يصير قدوة حسنة يسير على نهجها من جاوروه أو ينتفع بها من صحبوه وأُشهد الله أنك كنت بيننا خير معلم وكنت من المخلصين، فرحمة الله عليك وبلغّك الفردوس رب العالمين .

عمتي أم عثمان

تلك الأيام الخوالي حيث كنا يا حبيبتي لم أفقدها بالتقادم ، لم تغرب شمسك يوماً عنى ولم أعلن الرحيل ، لم أجد لك بديلاً وصار البديل مستحيلاً، أتعرفين يا قطعة من الفؤاد أن ذهب الأرض من بعدك قد صار نحاساً وأن فؤادي من بعدك قد صار روتيناً بين الناس وصرت أفتش عنكِ لكنهم يخبرونني دائماً أنك الآن لَستِ بيننا وأنك من الغائبين.

طلابي الأعزاء دفعة ٢٠٢٠ والدفعات السابقة

لم تكن مهنة التدريس غايتي ومناي إلا أنها لم تكن بعيدة عنى وأزعم أنني وبفضل الله أهلاً لها ، لن أدّعى بطولة لكن هي مجرد هبات وقدرات يختص الله بها البعض ويختص بغيرها البعض الآخر وربك هو أحكم الحاكمين .

ورغم كل المستجدات إلا أن التدريس له بريقه الخلاّب وقيمته الدفينة في عقول وقلوب من علّم ومن تعلّم فرُب معلم يكفيه في دنياه وجه تبسّم له اعترافاً بالفضل وبعد مماته يد ارتفعت للسماء ولسان تمتم بدعوة خالصة لأن يرحم الله ذاك نفس صاحب الفضل .

طلابي الموقرين .. طالما وقفت بينكم شارحاً وسائلاً، واصفاً ومستفسراً لكن المعلم الحق هو من يتعلم، علمتني المواقف والنقاشات، أفهمتني طبيعتكم التي تختلف باختلاف سماتكم ، أصقلتني عثرات رأيتها في أفعالكم وكما أنتظر بشغف عرفناكم فالأوجب أن أعترف بجميلكم.

تقبلوا منى المودة وفائق التقدير

إليكما يا نبضي القلب

هاني شريف: لا تسألني كم وكيف أحبك فعشقك في الوريد هتاف.

راكان وليد: في قربك أحلام الماضي السعيد وأماني المستقبل البعيد.

استهلال واجب

تلك الأرض التي امتد بساطها لن تُضار بهذا أو ذاك، لن تَبلى من ذنوب البعض ولن تصير جنة الخلد بتقوى آخرين، فقط هي ذاك الخط الأول الذى ينقلنا إلى النهايات التي لن تنتهي .

واختلافات البشر والفوارق بينهم مؤكدة باختلاف أفئدتهم وعقولهم ومهنهم ولا ارتباط شرطي بين مهنة هذا وبين سماته ، فلا إلصاق لصفة بصاحب مهنة ولا تمجيد لآخر لكونه يعمل بتلك المهنة .

الشخصيات الواردة في الرواية هي مجرد تركيب لصفات معينة طبقاً لرؤية الكاتب، قد يُصادف أن تعرف أحداً بنفس الصفات وفى نفس المهنة، لكن كل التقدير لكل الأشخاص ولجميع المهن .

هانـي خليفة

دولاب فضة

حينما تلتقى ذلاّت الأرض برحمة السماء فالميزان عادل، وحينما يتسلق المذنبون حبائل التوبة طمعاً في المغفرة فالغفار واحد، فلا البشر يخلو من الخطيئة ولا السماء تُوصد أبوابها لحظة في وجه المريد، تلك هى حِكمة الحِكم وعظمة الإله الذى ألهمنا بالعقل وتفضّل علينا برحمته.

ليلة من ليالي شتاءٍ تغيّر حال أيامه كما تغيرت أشياء كثيرة، أصوات رعدها داهمت النوافذ فنالت من نافذة غرفتها، وسهم برقها اخترق الجدران بمجرد الإحساس بأنه يغزو صفحة السماء، كان نومها ثقيلاً بما لم يجعلها تستيقظ عن عمد إلا في وقت الفجر وفيما عدا ذلك كان لا استيقاظ لها إلا بمساعدة خادمتها خديجة.

ولأن دوام الحال من درب المحال ولأن الظروف الطارئة قد تُغيّر ما تعودت واعتدت عليه فقد انتفضت السيدة من نومها مستعيذة بالله من الشيطان مرددة برجفة (الطف يا رب) اتكأت بيدها على "الكومودينو"

الذى يجاور سريرها وألقت بقدمها اليمنى تتحسس الأرض وما إن لامستها قدمها حتى استعدلت ووضعت القدم الأخرى وظلت جالسة على السرير وقدماها مستقرتان على الأرض لثوان مغمضة عينيها رغم أن النور كان منطفئاً فلم تكن السيدة ممن تغمض جفونهم في وجود شعاع للضياء.

تمالكت قواها واستجمعت هدوء وثبات روحها ونهضت متحسسة الحائط حتى أشعلت المصباح ثم جلست أسفله على كرسي (فوتيه) كي يطمأن قلبها وتستعيد بعض الأمن الذى كدّره البرق والرعد، التقطت (الشال الأسود) خاصتها الذى اعتادت أن تتركه على هذا الكرسي وهى تتجه نحو سريرها، همت على مهل بفتح باب الغرفة وما إن خرجت منها حتى أغلقته بإحكام كانت السيدة تحرص على خصوصية الأشياء والأماكن حتى وإن ساد الظلام.

تحسست الحائط على مهل بيمناها وبعد أربع خطوات تعلقت بكرسي (فوتيه) آخر يجاور التليفون الأرضي ثم خطت خطوتين وفى الثالثة فتحت باب غرفة استقبال الضيوف بترقب وحذر وسارت في مواجهة الباب نحو

ست خطوات واستقرت على كرسي الصالون تحت الشباك المجاور لدولاب الفضة العتيق المصنوع من خشب الأبانوس.

إن قدّ الظلام قلبك وأخرجك من أمانك واطمئنانك إلى عالم الهلع والريبة فابحث عن دوائك فلكل داء دواء.

كان ملاذها الدائم هو غرفة استقبال الضيوف التي لا زالت تحتفظ برائحة الأيام الخوالي التي سقطت من شجرة عمرها لكنها أبداً لم تسقط من القلب والعقل، غرفة بحرية الهواء ذات شباك طويل تغيرت أخشابه لكن لم يتغير طرازه يطل مباشرة على (الجنينة) والآخر شرقي يطل على الشارع، غرفة تجاوزت الأربعين متراً احتفظت فيها السيدة بالصالون (المُدهب) الذى اشتراه أبوها في مزاد علني قالوا أنه كان من ممتلكات فاروق الأول وكان الكرسي الوحيد الذى يروقها الجلوس عليه مميز عن غيره في الارتفاع والفخامة وكأن نحاتاً قد ألقى عليه بسحر امتلكه من خبرات الأولين والآخرين في عصور مختلفة.

أسفل الشباك البحري كانت هناك مقاعد أمريكاني (سبور)، فلم يكن مسموحاً بأي تغيير في الغرفة سوى في هذا الركن وفي مواجهة ذاك

الكرسي الذى اعتادت السيدة الجلوس عليه كانت الشاشة كبيرة الحجم التي اضطرت إليها السيدة بعد أن ضعفت حدود بصرها، إلى جانب اللمبات الحديثة التي تُضاء في وجود الضيوف لكن إن خلت السيدة إلى نفسها فتكتفى بالضوء الخافت يبدو أنها كانت من عشاقه.

دولاب الفضة المجاور للكرسي الملكي المميز كان الغاية والمنى، تعود إليها السكينة إن أبصرته وتهيم في ماضيها إن تحسست ما فيه.

غداً ليس ككل الأيام بالنسبة لغيرها أكثر منها، في المساء كما اتفقوا جميعاً سيحتفلون بعيد ميلادها المائة حيث يسكن أبناء أشقائها الثلاثة وأسرهم في العمارة (البرج) الذى تمتلكه السيدة وهم له من بعد وفاتها لوارثون، ألحّوا جميعاً في طلبهم ووافقت السيدة تحت ضغط وإلحاح وبعد أن أقسموا عليها بأغلظ الأيمان وبرحمة آبائهم الثلاثة وخالد الذكر جدهم، ورغم صلابتها وفتوة عقلها ورجاحته وعنادها المعهود إلا أنها رضخت، ربما أنهم أدركوا بقصد أو بغير قصد أن ذاك الجبل مهما شمخ وأرهب الناظرين إلا أنها بشر تحمل في صدرها قلب عصفور رقيق يستشعر الضعف ويعرف معنى العفو حتى وإن طغى الآخرون.

هدأت أنّات الرعد واختبأ البرق في كبد السماء، دقائق وعاد التيار الكهربي والسيدة لم تبرح مكانها بعد، أدارت يدها بعد أن همّت وفتحت الشباك الشرقي، أمسكت بشرائحه الحديدية القائمة التي تنطق بالصمود وارتشف أنفها عن عمد زمهرير البرد القارص ربما لاستحضار عافية لم ترفق بها الأيام أو لتنقية ذهن لم يقوى عليه الزمن، استدارت خطوة فالأخرى مدت يدها إلى جيبها (السيّالة) وأخرجت سلسلة مفاتيحها وهمّت بفتح دولاب الفضة وأخرجت علبة الذكريات بكلتا يديها فقد كانت ثقيلة، تراجعت ووضعتها على الطاولة أمام ذاك الكرسي ومدت يدها تتفحص الصندوق وتنتقل إلى عالمها الذى تعشقه.

إن تكاتلت أصابع الغيوم تحجب الضوء عنك فابترها بلا أدنى رحمة وافتح نافذه جديدة ترى منها صفحة السماء الصافية فيهدأ بالك وتستعيد النبض من جديد.

الصندوق ملئ بالذكريات ولكل ذكرى من الشهد والدموع سنوات، فلا كل الأيام انتصار ولا العمر كله انكسار.

أمسكت بخاتم أبيها الذهبي الضخم الذى يزن حوالى (٣٠) جرام عيار٢٤ وقبّلته كما قبّلت يدى أبيها في أخطر مشهدين في حياتها يوم طلاقها ويوم أن قضى نحبه.

كان أبيها الشيخ (عطاالله محجوب)عيناً لأعيان الناحية والنواحي المجاورة ورث عن أبيه عشرة أفدنه واستطاع بكدّه وعمله بالتجارة أن يُضاعفها إلى خمسين في أقل من عشرين عام، بالطبع لم تكن الأرض الزراعية هى بوابته الأساسية نحو الثراء ولكن ألمعيته قد أهدته إلى تجارة المواشي والدواجن ومنتجاتها من لبن وسمن وزبد وبيض وبيعها لبيوت الأثرياء في القاهرة، اعتمد في ذلك في البداية على صديقه الأستاذ (غبريال متّى) وكيل وزارة الزراعة في المديرية، كان غبريال (صاحب صاحبه) وقدّمه إلى البشوات والبهوات وصار عطاالله يمتلك شبكة علاقات تكفى لأن تكون سوقاً رائجاً لبضاعته ومصدراً للمال الوفير.

كان الرجل فاضلاً بحق، ثراؤه لم يمنعه يوماً من إخراج حق الفقير ووجاهته وعنفوانه لم يجعلاه يوماً يتوانى عن نصرة المظلوم حتى أنه إن جار أحد على آخر فكان المظلوم يلهث مردداً (والله لأجيبلك سيف عطاالله).

عشر سنوات بعد زواجه حُرم الرجل من الخلفة، وفى العام العاشر رُزق بأنثى وكعادة رجال (زمان) لم يفرح كثيراً إلا أنه وبما آتاه الله من بأس شديد داوى جرحه بيديه وأسماها (ست البنات) حتى يكون لها نصيبٌ من اسمها فلا تكون مجرد أنثى عادية تمر مرور الكرام في حياة أهل القرية بل لابد أن تكون (ست البنات) وتاج النساء بين الجميع.

بعد مولدها تتابعت السنون عاماً بعد آخر وحُرم الرجل ثانية من الخلف حتى ظن في نفسه أنها كانت شؤماً عليه لكن هذا لم يمنعه من قسوة فرضها عليها ظناً منه أن نجاتها فيها وأحياناً رحمة ودفء ظناً أن حياتها فيها.

عشر سنوات أخرى ورُزق بـ طاهر وقبل انقضاء عشرة ثالثة كان قد رُزق بعبدون ثم فؤاد.

أتمت (ست البنات) عامها العشرين وفؤاد لا زال يُحمل على الكتف سقطت الأم من أثر حمى النفاث بعد ولادته، صارت ست البنات أماً لفؤاد، لم تنظر إلى عمرها الذى مضى فالعشرون عاماً في عمر الصبايا وقتها كانت كفيلة أن تمنحها لقب (عانس) كانت راجحة العقل والقلب فلا اهتمت

يوماً بثرثرة الصبايا في حقول الزرع والحصاد ولا عند اجتماعهن وهن يملأن جرار الماء من الترعة القبلية.

مرت أيامها بعد العشرين هادئة راضية واطمأن قلبها إلى أن كل شيء في هذه الحياة (قسمة ونصيب) وكلما هاجت بداخلها ثورة الأنثى نحو الزواج والأبناء كغيرها من باقي النساء كان يَغلب عليها (سيف عطا الله) الذى تقلّدته في معاملاتها مع الآخرين، وكلما نظرت في مرآتها وجدت منطقية في تأخر زواجها كانت تدرك معنى الجينات وعلم الوراثة وهى بالكاد تكتب وتقرأ، أدركت أن في سمرة بشرتها وانفلات طولها بما يفوق الأخريات وتشابك حاجبيها واستواء صدرها وجحوظ عينيها، أدركت أن ملامح (الجيل الأول) التي نُسخت بها هيئتها كأبيها تكفى لـ ألاّ يعيرها أحدٌ اهتمام بغرض العاطفة والزواج وأيقنت أن براعة الحاوي لا يضيرها لذعة من النيران.

أنت تدبّر والله يقدّر، حين أتمت ست البنات الرابعة والعشرين كانت على موعد مع ما ظنت أنه المكافأة والنجاة، خفق قلبها ورفع رايته البيضاء سراً أمام النظرات الثاقبة لعلاّم (ابن صاحب الدكان)، كان (مصطفى مختار) يرسل ابنه (علاّم) إلى بيت الشيخ عطاالله ليزودهم أسبوعياً بما يحتاجونه من مواد تموينية وغيرها، اعتاد الطفل الصغير الذهاب إلى بيت الشيخ عطا الله وتعوّد عليه فصار يلعب مع طاهر رغم أنه يكبره بست سنوات، ذهبت طفولة (علاّم) وحلّت مراهقته وأتمها ودخل في عمر العشرين كبر عمره ولم تنقطع عاداته ومن أهمها العبث مع من يصغرونه وعزف النظرات لست البنات على كل لون وبشتى الألحان.

الحرمان سيف سُلّط على قلبها وصار أحدّ من سيف عطا الله، خرّ قلبها ساجداً في محراب نظراته وسكنت جوارحها مخدرة من فرط التفكير فيمن فض عذرية قلبها، صارت في حلمها كفراشة تحلّق في سماء العشق، كولي ناجى ربه فاستجاب له في الحال.

يوم أن ذهب (مصطفى مختار) لطلب يديها لابنه (علاّم) كان يوماً ثقيلاً على الرجل لكن ما هدّأ من روعه طمـأنة علاّم له أنه أتم الموضوع مع

صاحبة الشأن وأن أباها لن يرفض لها أمنية، ومن ثمّ حينما أخبر عطا الله ابنته أظهرت خجلاً مصطنعاً لأنها على يقين أن الرجل لا يستطيع أحد لَيّ ذراعه حتى لو كانت هي ذاتها واستدرجته حتى خلقت حواراً عن علاّم وانتهى بها الأمر أن أقنعته أن الناس جميعاً فيهم الخير والبركة والمهم العمل الجاد وإن قل ثمره والقرش الحلال وإن نقص عدده (ناهيك يا أبى عن أن أحداً عاقلاً لن يرض بي) وقد كان تزوج علام بست البنات.

مضت أيام العروس الأولى في سعادة وانتصار ومع تقدم الليالي ذاقت لوعة الحسرة والانكسار، اصطدمت بواقع مر فعلاّم لا توقَد له نار ولا يبدو عنتراً في تلك الدار وما زال يكرر على سمعها (ولاد الكلب ربطوني).

طال الصبر بالشريفة واحتملت سوطاً جديداً بأيدي الأيام، ومضى نحو ستون يوماً (محلك سر) وذات ليلة بينما كانت تنصحه بزياره طبيب البندر احتد عليها وألقى من فمه (احمدي ربنا يا بايرة يا بنت الكلب)، لحظات وانتفض حاجبيها وأمسكت (القلة) بيدها ودقتها على رأسه كما يُدق المسمار في قلب الخشب سال الدم من رأسه وقِيل أن كيلو بن لم يكفِ لكتم جرح علاّم.

يومان وحدث الطلاق، وأدركت ست البنات أن قوتها في عذريتها وصارت آمنة مطمئنة وأنه لم يعد ينقصها شيء وهنا استوى لها مُلك أبيها وصارت بحق (سيف عطا الله)، ولم يمض شهر إلا وباع مصطفى مختار دكانه والستة قراريط التي كان يمتلكها وغادر إلى البندر.

أربع سنوات ومات الشيخ عطا الله تاركاً ميراثاً كبيراً لأبنائه والسيف تملكه (ست البنات) وحدها، تحكم فتُطاع وتأمر أحداً فينصاع ومن خرج عن مشورتها فيُرد له العصيان ألف صاع.

شهران بعد موت الرجل وصار (طاهر) في عمر الثمانية عشرة، فأمرت بتزويجه فلما عاتبها على استحياء لموت أبيهم نهرته بحسم (الحزن بتاعنا والفرح بتاعنا) اختارت له بنت عمدة إحدى القرى المجاورة كانت فاطمة فائقة الجمال لكنها كانت حادة الطباع، ورغم ما علمته ست البنات عن طباعها إلا أنها كانت على يقين أن الأسد القابع في عرينه يصير حملاً أمام سيف عطا الله.

حينما أتم (عبدون) هو الآخر الثمانية عشر قامت بتزويجه من البندر ابنة أحد التجار الذين كانت تتعامل معهم، كانت (رقية) أقل من (فاطمة)

في الجمال بقليل لكنها كانت الأذكى والأكثر جذباً للناس من حولها وكان ثغرها لا يتوقف عن التبسم، فنالت احتضان ست البنات حتى أنها كانت تصطحبها معها إن زارت القاهرة إلى جانب خادمتها وسرها (نظلة).

وكما جرت عادتها فقد زوجت ست البنات فؤاد وليد قلبها من قريبة لهم من أمها من قرية مجاورة، كانت (فُتنة) اسم على مسمى فكل من رآها يُفتن بهدوء لم يعهده أحدٌ في هذا البيت، كان بياض وجهها يشع خجلاً إن تحدثت مع أحد ولا تسمع لها صوتاً إلا حينما يُنادى عليها أو تُؤمر بشيء فيقتضب جوابها عند (نعم وحاضر ومن عنيا) حتى في جلسات السمر كانت تستمع ولا تتحدث إلا نادراً فإن ضحكت كأن في قهقهاتها عازل وإن بكت وكأن صوتها يخجل من البوح بالبكاء.

صارت ست البنات ذاك السيف المسلط على الجميع في الحق كما كان عطا الله، سيدة لدار تحوى ثلاث أسر كانت تحكم بينهم بعدل ورحمة أما قلبها فتعلق بإحداهن عن الأخرى ولم يعكر صفوها أحياناً سوى فاطمة زوجة طاهر إلا أن بأس ست البنات كان مفعوله سريعاً ولا تستطيع فاطمة ولا ألف فاطمة أن تمنعها من السير قدماً في رحلة قد كُتبت عليها.

ومن غرائب القدر أن كل من الرجال الثلاثة قد تأخروا في الإنجاب لسنوات طويلة وحينما أذن الله أنجبوا بنفس ترتيب أعمارهم وصار لكل منهم ذكر واحد وكانوا جميعاً من مواليد الستينيات، رُزق طاهر بعماد فقد كانت فاطمه مغرمة بعماد حمدي منذ أن رأته في السينما من أول مرة حينما كانت تزور القاهرة وظلت تُلّح كل فترة على زوجها للذهاب إلى القاهرة لمشاهدة أفلام عماد حمدي لكنها هدأت بعد أن صار لديها عماد طاهر.

كانت رقية كعادتها لمّاحه وجابرة للخواطر وأقسمت على زوجها أن أحداً لن يسمى ابنها إلا عمتها (ست البنات) فاختارت له اسم عبدالله، وكان أوفر حظاً من ابن فاطمة في يوم سبوعه ويوم (طهوره).

أما فؤاد فقد اختار لابنه اسم (فاروق) لسببين أولهما موسيقى الاسم وثانيهما أنه نال قسطاً أكبر من التعليم وكان له آراء على غير الغالبية من أبناء جيله، ولا بأس فقد أسماه أباه فؤاد عن عمد وهو يسمى ولده فاروق عن عمد أيضاً، وأما فُتنة حينما أخبرها فؤاد بالاسم ارتسم ثغرها كطفلة أعطوها حلواها وردت (حاضر يا فؤاد).

دخل بيت عطا الله ستينيات القرن الماضي في مرحلة الاستقرار التام كل غرفة تحوى أسرة وكل أسرة تختلف في أيدولوجيتها حتى وإن كانت أيدولوجية فطرية لكن خارج الغرف الثلاث سيف عطا الله يحكم وأحياناً يتم استبداله بقلب ست البنات.

الصدف لا تأتى من الصدفة ولكن القدر هو وحده الذى يُقلّب ثم يعيد ترتيب الأشياء والأحداث فيبدّل ويرفع ويخفض ويمنع ثم يصفح ولا راد للقدر ولا عجب أمام مشيئة الله.

مات الرجال الثلاثة في عامين ولكن بترتيب عكسي، فؤاد سقط شهيداً في ٦٧ وعبدون سقط غريقاً في ٦٨ ثم انتهى الأمر في أواخر نفس العام بمرض طاهر لشهر ثم مات.

أُسدل الستار على أيام الاستقرار وسقطت الأعمدة الثلاثة التي رُفع عليها بيت عطا الله وصار سيفه بارداً ملجماً أمام قوة السماء وصار الصبر مطلب ست البنات الوحيد وأملها في عامين اختنق فيهما زئيرها وقُصم ظهرها ومن تلك اللحظة صار الفجر عادتها وعبادتها وصارت صلاته

بوابتها نحو التهام الصبر واستعادة عافيتها التي تُغِير عليها الأيام ومن وقتها لم تنقطع عن صلاة الفجر إلا لظرف طارئ بل لظرف قاتل.

من يطلب الرحمة فالله أرحم بعباده ومن طلب العون من ربه فالله هو الرؤوف، أدركت أن الحياة ما فعلت بها سوى أن أعادتها إلى نقطة البداية كي تستعيد ذكرى تربية إخوانها الراحلين في شخص أبنائهم الثلاثة ولكن الأمر الآن قد صار أثقل والمهمة قد صارت أصعب لأن عمرها قد فارقته أوراق كثيرة في أكثر من خريف، كما أن الذكور الثلاثة مُعلّق في رقابهم أمهاتهم اللاتي قد صرن من الأرامل، لكن بعد تدبير وإحكام للعقل أدركت أن الحل في النساء الثلاث هو تهديدهن إن لزم الأمر بالميراث فكل الأملاك كانت باسمها وكأن عطا الله لم يأتمن غيرها على ميراث الجميع، ولكن المفاجأة أن الأمر لم يصل إلى ذاك الحد لأنهن قد أيقنّ ذلك سواء بالرضى أو على غير رضاهم (فاطمة تحديداً) وسريعاً قدمت النساء الثلاث فروض الطاعة بعد أن استلت ست البنات سيفها تحسباً لأى تمرد وحتى تبدأ رحلتها من جديد كما ترى وكيفما كانت ترى.

طابت الحياة رغم أنف الجميع ومضت السنون والذكور يكبرون أمام عمتهم تَقرُّ عيناها بهم ويزدادون بها أمناً، لم تخلُ الحياة بالتأكيد من مشاجرات النساء الثلاث بسبب الأبناء، أو خلافهن مع روحية بنت نظلة رحمها الله، أو بسبب الطعام الذى زاد أو قل ملحه، كل هذا كان في إطار المنطق إذن فلا ضرر ولا ضرار طالما أن الجميع يهاب سيف عطا الله ولا يستطيع إرجاعه إلى غمده الأخير.

الزمهرير الذى يأتي من الشباك الشرقي كان لازماً لتهدئة النار المتأججة التي حلت بست البنات كلما فتحت الصندوق لكن مع هروب مارد الذكريات من الجسد فإنه يستعيد توازنه، وهنا ألهب الزمهرير جسد السيدة العجوز فالقلب يقاوم لأنه لا يعرف الشيبة لكن الجسد أبداً لا يقاوم إلا بمقدار السنوات التي سقطت من شجرة العمر .

همّت بإغلاق الشباك ثم استدارت متلفحة بالشال وأغلقت الصندوق بإحكام ووضعته في الدولاب وأغلقته هو الآخر بإحكام ونظرت لساعة الحائط فوجدت أنه تبقى على صلاة الفجر أكثر من ثلاث ساعات فعادت على قدميها بخطوات هادئة دون أن تتحسس الجدران، وأعادت فتح باب

غرفتها ووضعت الشال خاصتها على الكرسي الفوتيه ثم أغلقت المصباح وذهبت إلى سريرها على مهل واستلقت ووضعت مخدتين كما اعتادت تحت رأسها ومدت يدها إلى الكومودينو بجوارها وأشعلت الأباجورة الخافتة ونظرت إلى الحائط عن يمينها واستأنست بصورة فوتوغرافية معلقة تجمع الذكور الثلاثة في طفولتهم أما الآن فقد صاروا الدكتور عماد طاهر والمهندس عبدالله عبدون والأستاذ فاروق فؤاد.

دقائق معدودة وخارت قواها أمام سلطان النوم

أولئك الذين يعشقون الشتاء أدمنوا لياليه الطويلة، يذوبون سهداً في الداخل والأمطار قد أوحلت الشوارع في الخارج، يترنمون بلذة احتساء كوب القهوة ويتناسون أطرافهم التي إن لامستها مسّتك الرعشة، يجعلون من ماضيهم مسبحة لا ينفرط عقد حباتها أبداً رغم أن حاضرهم فيه ما يكفى للانشغال، هؤلاء حاول ألا تتعمق بداخلهم كثيراً لأن سؤالك عن حالهم يقابله جواب مكتوم تارة ورد محسوم تارة أخرى فلا تكن فضولياً مع من كتم ولا فوضوياً مع من حسم وقف على شاطئ الحياة بحذر فلا تخدعك أمواجه فتندم ولا يمسّك التهور كي تسلم.

ذخّات قليلة لا زالت تداعب الأرض في الخارج لكنها لا تدعو إلى لقلق حتى أن الكهرباء لم تنقطع مرة ثانية بسببها، لا زالت ست البنات في خلودها على السرير الحديدي (أبو عمدان) الذى لا زالت عمدانه تبرق فالشيء الفاخر إن مضت عليه الأيام وبقليل من الاهتمام يظل على أصله.

كانت لا تستريح إلا إذا استلقت على ظهرها وتحت رأسها مخدتين ومن رآها قال أنها غالباً لا تتقلب إلا نادراً، أُذِّن لصلاة الفجر فنهضت صاحبة المائة عام بحذرها المعهود كما اعتادت واستقرت على الفوتيه لدقيقتين تتمتم بالاستغفار وقد أشعلت الأباجورة ثم نهضت وأشعلت المصباح الكهربائي وانتعلت (شبشب الحمام) المحفور من نعله حتى لا تنزلق قدماها وسارت بعد أن فتحت الباب خطوات قليلة فالحمام بجوار غرفتها مباشرة استعاذت من الشيطان ودخلت وجلسات على كرسي خشبي ارتفاعه أقل من ثلاثين سنتيمتر ومدت يديها إلى الصنبور المنخفض فتوضأت وعادت كما أتت فتقدمت على مهل إلى السجادة المفروشة دائماً في ركن بالغرفة خلا من كل شيء إلا من سجادة الصلاة وأدت الفرض جالسة إلا أنها كانت تحرص على السجود، ختمت صلاتها وبدأت في وردها اليومي

من الدعاء (بالاسم) لما ظنت أنهم أحوج إلى دعائها، تبدأ بأبيها الذى أخذت منه أكثر مما أخذت عنه، شاركته الملامح والطباع استظلت بظله حياً وصارت سيفاً كسيفه بعد الممات، كانت ترى أنه من فضل الله عليها أن جعل أبيها يتفطن ويُغلّب فيها (عن عمد) ذكورتها على أنوثتها.

بكت كثيراً في دعائها (طاهر وعبدون وفؤاد) حينما كان يأتي دورهم هنا يلمع بريق شيخوختها في عينيها الضيقتين وتسمع أنّات وجزع كجزع الطفولة تجويداً على أحبالها الصوتية الهرمة فتردد منتحبة (آه يا كبدي).

ترحَّمت كثيراً بانتظام ودون سهو عمن عاوناها نظلة وابنتها روحية ودعت بإخلاص للحفيدة خديجة، استأنست بهن حينما أغارت عليها فرقة الأيام وأوصلوا ما بقى من شرايينها بالحياة، كان سيف عطا الله عوناً صادقاً لأسرهن وخير معين لهن على الحياة فمن يُقدّر الأرزاق عادل وكل رزق بميقات.

لم تتناسَ في الدعاء زوجات إخوانها الثلاثة دون أن يُشحن صدرها بكيد فاطمة أو تُميّز فُتنة عن رقية كان دعاؤها لهن مقتضباً بالهداية وراحة البال.

كان أبناء إخوانها الثلاثة مسك الدعاء وخاتمته، فالأول والأخير لا يُنسى وما بينهما قد تشوبه غفلة، أفردت لهم من دعائها الكفاية ولأبنائهم وزوجاتهم بعد أن صاروا أصحاب أُسر مستقلة، وبعد أن تنتهى من دعائها لا تمر نصف ساعة إلا وخديجة تطرق الباب بصحبة زوجها الذى اعتاد توصيلها يومياً وهو ذاهب للسوق لبيع (البوظة) ولهذا كانت ست البنات تحرص أن تكون على الكنبة المجاورة للباب وتشغل ذاك الوقت بالتسبيح والاستغفار.

برج عطا الله

بينما كانت ست البنات في انتظار خديجة وبينما هي غارقة في ذكرها وتسبيحها، سهت قليلاً وانشغلت بفكرة أن اليوم هو يوم ميلادها، كانت مدركة ما هي حفلات عيد الميلاد وحضرتها من قبل حينما كان أبناء إخوانها في (بيت البلد) لكن ما شغل بالها قليلاً هو تصميمهم جميعاً بأن يحتفلوا بها هذا العام وتحديداً في البرج القائم في المدينة الذى يمتلكونه ويحمل اسم (برج عطا الله)، فلما تمعنّت أول الأمر أدركت أن الأولاد الذين صاروا رجالاً وصار من أصلابهم أحفاداً لديهم جميعاً الحق فالمائة عام تستحق الاحتفال خاصة مع من هو مثلها يفتخر بطول عمره فقد كانت ست البنات ترى أنها نعمة وخصوصية فكانت تقاوم شيخوختها بحسن المظهر والاتكاء على عكاز من الخشب الأبنوس المطعّم بالفضة، ومما يُذكر أنها حتى يومها هذا كانت معتادة على تغيير طاقم الأسنان خاصتها كلما جدّ تطور في هذا المجال فمنذ أن ركّبته لأول مرة منذ عام ١٩٩٧ وهى تحدثه باستمرار فإن

كان لكل شيء سبب فقد رأت أنه من أسباب احتفاظها بحيويتها وقدرتها على الحركة مقارنة بعدد سنوات عمرها هو أنها كانت تحرص على الطعام الجيد كماً ونوعاً خاصة في وجبتي الإفطار والغداء ومن هنا كانت الحظوة للأسنان على باقي أعضاء جسدها.

كانت ست البنات بما امتلكته من مرونة في العقل تؤمن أن التغير هو الثابت الوحيد في الحياة وأنه يحتاج إلى عقل ناضج يصعد معه السلم فالحياة لم ولن تقف فلا بد أن يدرك العقل ذلك حتى لا يهلك.

مع نهاية الثمانيات ومطلع التسعينات كان الثلاثة عماد وعبدالله وفاروق قد تركوا (بيت البلد) واصطحبوا معهم أمهاتهم منهم من رأى في ذلك الفرار ومنهم من رأى في ذلك سُنة الاختيار ومنهم من أجبرته الأيام على ذلك وبالطبع كان فاروق آخر من انسلخ عن بيت البلد.

لم تُصب ست البنات في حياتها بعد فراق إخوتها بما يسمى (صدمة) فلا تندهش كثيراً بأفعال البشر ولا تستغرب مكرهم ولا يؤذها سماع أن هذا قد اشتكى أخيه في مقرات ومراكز الشرطة وقام بالزج به في السجن أو طعنه بسكين من أجل عيون زوجته، حتى أنها لم تندهش ولم تحرك ساكناً

حينما علمت أن علاّماً قد مات منذ عشرين عام تاركاً ولداً وبنتين وأحفاداً أثراهم الخليج بسخاء وغمرهم بالريال والدولار حتى أنهم عادوا إلى البلد واشتروا عشرين فداناً بحوالي مائتي ألف جنيه في مطلع التسعينات (شايلينهم للزمن) وبمرور الأيام تحول منها أكثر من فدان ودخل في كردون المباني وأصبحت المساحة كلها تساوى ٢٠ مليون جنيهاً وليس هذا أغرب من جدهم ذاته الذى رُبط في فسيح الأرياف وانفك لجامه بين عمارات البندر يبدو أن مولانا الذى فكّ قيده كان صاحب كرامات.

خلال الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة لم تعط ست البنات التجارة اهتماماً كالسابق فالتجارة تحتاج منها حركة دائبة وسفر متواصل وهذا ما لم تصبح قادرة عليه فاكتفت بإيراد الأرض عن طريق الإيجار السنوي الذى يصل الآن إلى حوالى ٦٠٠ ألف جنيه سنوياً، بالإضافة إلى بعض الماشية مشاركة مع بعض الفلاحين بغرض المساعدة، حقاً لم يزد عدد الأفدنة من أواخر زمن أبيها ولكنها كانت تسيل النقود على أبناء إخوانها بإسهاب ولكن بانتظام بشكل شهري وعلى من رأت مساعدتهم أضف إلى ذلك تحديداً ما كان يخفى عن الغالبية أنها وهبت ثلث دخلها للفقراء في أي

مكان، كان هذا نذراً منها بعد موت إخوانها الثلاثة بسنوات وتحديداً في مطلع السبعينيات.

حينما انتصر المكلومون ومن جار عليهم (سيف) العباد في ٢٠١١ وفى أثناء الفوضوية التي تبعت انتفاضة يناير كان هناك بعض الموتورين والنادر منهم مظلومين الذين استغلوا غيبوبة الدولة قبل التعافي في البناء على الأرض الزراعية ولّما كان لست البنات نحو قيراطين زراعيين غربي المدينة بحوالي كيلو متر كانت قد امتلكتهم في عام ٢٠٠٠ كتخليص حق من أحد التجار، وبناء على الفوضى التي أعقبت ٢٠١١ فقد استطاع الدكتور عماد طاهر أن يُقنع المهندس عبدالله عبدون والأستاذ فاروق فؤاد أن تُشيّد لهم العمة عمارة على غرار الأبراج التي انتشرت في المدينة انتشار الجراد في أرض هزيلة طوّقتها العلل، ولم تقتنع ست البنات بكلام ابن فاطمة الذى تودد إليها تودداً غير مسبوق فالعين تفضح صاحبها والماضي لا يكذب، ولأنه كان ماهراً في التخطيط كمهارته في (تجارة) طب النساء والتوليد صدّر لها المهندس عبدالله والأستاذ فاروق وأقنعوها بمنطق بسيط حيث أن جميعهم

يعيشون في شقق بالإيجار وهم ليسوا بقليلي الحيلة وأن الله قد أنعم عليهم وعلى آبائهم وقبّلوا يديها وخديها ورأسها ودعوا لها بطول العمر.

انفرج ثغرها ورددت كلما دعا لها أحد بطول العمر (اللي يعيش قدنا ربنا يغنيه زيينا) ببساطة أدركت احتياج ابنى فاطمة ورقية لشقق (تمليك) توفيراً للإيجار الشهري فلعل هذا أكثر أماناً لهما ولا بأس من ابن فاطمة فالشرع عادل حتى وإن كان من البشر حرابى يتلونون، لكنها أخبرتهم أن (البرج) الذى يأملون تشييده سيتكلف ملايين وهى لا تمتلك تلك السيولة فسارع سفاح النساء والتوليد بأنه وبمساعدة زوجته يستطيع إتمام البرج فأوقفته بيدها ثم تمهلت ثم أخذت قراراً ظنته عادلاً على أن يشيد هو البرج ويصبح ملكه كاملاً بشرطين أولهما أن يعطى عماد لكل واحد من أبناء عمه دوراً كاملاً علي سبيل التمليك وثانياً أن يطلق على البرج اسم عطا الله وبالإضافة إلى ذلك أن تؤول ملكية الأرض إن أُزيل البرج لأى سبب أو في حالة بيعه إلى الورثة الثلاثة أو من يرثهم.

كان قرار عماد سريعاً بالموافقة لأنه مبتغاه الأساسي هو تشييد مستشفى متكامل على طراز فاخر بإمكانات متفردة عن ذويه من أطباء المدينة وعليه فهو يحتاج ثلاثة أدوار قد تزيد وهنا كان على ست البنات أن تُوثّق كل شيء بمستندات رسمية في الشهر العقاري حتى تحفظ حق الجميع بمنتهى العدل، عام مضى وشُيد المبنى وكُتب على لوحة من الرخام على باب المدخل :

ادخلوها بسلام آمنين

برج عطا الله

زائرة الفجر

يبدو أن غفلة قد أصابت ست البنات ففزعت على دقات خديجة وزوجها سعيد وصوتها فاستعدلت ومدت يدها وفتحت التراس ثم الباب فدخلت خديجة:

صباح الخير يا جدتي (كانت تناديها كهذا)

أومأ سعيد برأسه قليلاً إلى الداخل (عاوزة حاجة يا ست الحاجة)

لا يا سعيد ربنا يستر طريقك يا ابنى

الله يديكى الصحة وطولة العمر يا ست الحاجة.. سلام عليكوا...

ست الحاجة.. كم طال بها الندم كلما تمعنت في هذا اللقب وكم اعتصر قلبها أسفاً كلما أخرج لها الشيطان لسانه الرجيم مكيدة فيها، فكيف لمن تسلّحت بسيف الحق أن تتخلى عن أداء حق الفريضة ! مرت سنوات عمرها كريح عاتية أغرّها بأسها فلما طال امتدت شجرة أيامها فانحنت وصارت استقامتها من درب المحال.

أغلقت خديجة الباب بإحكام ومدت يدها لست البنات فقامت ثم اتكأت على عكازها الأبنوس

جهزى الحاجة يا خديجة بطني فاضية يا بنتي

حاضر يا جدتي.. يحضرلك الخير يا حبيبتي

كان المعتاد يومياً في هذا الوقت أن تحضر لها خديجة كوبا كبيراً من اللبن (الصابح) تجلبه معها يومياً بعد أن تحلب الجاموسة التي اشترتها لها السيدة فتنتفع بما تحتاجه من اللبن وما تبقى وهو الأوفر لخديجة وعيالها أما الجاموسة ذاتها فهي هبة من ست البنات لخديجة، ومع كوب اللبن قليل من عيش الفرن البلدي تُغمّسه في كوب اللبن (تسقية)، وجبة بسيطة وهادئة تستريح لها وتريحها حتى موعد الإفطار في وقت الضحى، عاودت السيدة الدخول إلى غرفة الاستقبال واستقرت على كرسيها المفضل بعد أن أخرجت العلبة فهى لا تمل كل يوم أن تعبث وتقلّب فيها ظناً منها أنها حينما تخلو إلى علبتها يتجسد لها من تركوا ذكرياتهم بداخلها.

كان طاهر شقيقها الأكبر في شهر مرضه قد استغنى عن نظارته التي لا زالت تحتفظ بها حتى الآن في العلبة، كان أقلهم في رؤية العين فقد أصيب بقصر النظر مما جعله لا يستغنى عن نظارته الطبية، وكان يعانى كثيراً وبالأخص في الأسبوع الأخير من المرض وكان آخر المفارقين بين إخوته الذكور.

كان بيت عطاالله ذو ضبط وربط ولم تأت المنغصّات غالباً إلا من فاطمة زوجة طاهر إلا أن فِتنتها ظلت خامدة كجمرة تحت كومة من القش الكثيف وما إن مات طاهر لاحت في أفق البيت علاّت النفس التي كانت تسكن قلبها، وبالرغم من هذا لم يندهش الجميع فكانت من قبل قد ظهرت مساوئها، ذات يوم اشتد النقاش بينها وبين الأرملتين رقية وفُتنة فلما ملأ قلبها وعقلها الشيطان عايرتهما بكونهما أرملتين دون أن تدرك أنهن السابقات وهى بعد شهور قلائل من اللاحقات.

كانت فاطمة (بنت العمدة) حريصة ألا تترك بيت عطاالله انتظاراً لموت ست البنات فتحصل على ميراث ابنها حيث أنه لم يتبق من ثروة أبيها سوى ثلاثة أفدنة بعد تقسيمهم على فاطمة وأخواتها الذكور الخمسة لن

يصيبها إلا القليل، لقد كان العمدة لا يشرب إلا أقوى وأرقى أنواع الحشيش ومن جاور العمدة يصير عمدة ولو في لحظات التجلي وهيام الانبساط.

وعلى النقيض تقريباً كانت طفولة عماد الذى صار يدمن الانطواء ربما اعتاد ذلك من كثرة ما كانت تمكث فاطمة بالأيام في غرفتها بعد (خناقة) مع الأخريين أو بعد أن توبخها ست البنات، كان ابنى عمه يدقان الباب عليه بغرض أن يلعبوا جميعاً في سور البيت... (غور ياض أنت وهو ضربة في بطنك منك له) تعودت رقية وفُتنة دعائها على الصغار فتمللوا من الرد عليها لكن لم يقدروا على منع الصغار.

مرت الأيام وست البنات تقبض على اللجام بحذر وقدرة عالية، ورغم أن الفرس كان يترنح كثيراً إلا أنه لم يتوقف وواصل سعيه في المضمار.

تغير قليلاً (الولد) طاهر في عمر المراهقة كان ينتشى وهو يسير مع ابنى أعمامه في شوارع البلد فهو الأكبر عمراً والأطول قامة وكان الولدين يقدمانه على نفسيهما في كل شيء كما غرست فيهم ست البنات أن (الكبير

كبير والصغير صغير) لا بأس فالعمة تعطى الدرس والأمهات تؤكد عليه إلا فاطمة فقد كانت من الجاحدين.

في السنة الأخيرة من الثانوية العامة اختلى طاهر بنفسه تماماً في غرفة أبيه فقد اعتاد ذلك من أمه، تغيب تماماً لأكثر من شهرين (لا مدارس بعد مارس) وانقطع عن الدنيا وصار راهباً في محراب الثانوية العامة حتى أن وزنه من كثرة الجلوس والنوم وعدم الحركة قد زاد عشرين كيلو جرام فطغت وجنتيه حتى ابتلعت عينيه الضيقتين اللاتي ورثهم عن عمته وأبيه وجده، بعد الامتحانات ظهرت النتيجة وحصل على ٨٨٪ والتحق بطب قصر العيني وذبحت له ست البنات عجلان سمينان الأول للفقراء والثاني أقيمت عليه مأدبة أضف إلى ذلك خروفاً طيباً طلبه من عمته التهمه هو وأمه على ثلاث وجبات.

كانت فرحة ست البنات مبعثها تلك اليافطة التي ستحمل اسم (عطاالله) في الشوارع والميادين ويا الله أن تأتى مقترنة باسم طبيب، كانت متحمسة أن يصير عماد طاهر طبيباً متخصصاً في أمراض القلب لكنه منذ عامه الثاني بالكلية كان قد اتخذ قراره بأن يتخصص في طب (النساء

والتوليد) وزاد إصراره بعد أن أصبح أقل جهداً في الكلية وبعد أن ابتلعته شباك (هويدا) التي كانت في السنه الثانية في كليه التجارة بينما كان هو في السنه الرابعة في كلية الطب.

كانت هويدا من نفس المحافظة التي كان منها طاهر وكان لها جارة زميله طاهر، وكانت ميرفت جارتها في بداية الأمر السبب الغير مباشر عن طريق الصدفة في التعارف بينهما ولّما كانت ميرفت على معرفة بطاهر وأسرته العريقة ولّما ألقت على سمع هويدا بكل ما تعرف عنه في ذهابهم وإيابهم ولحظات النميمة لبنات ما قبل الزواج فما كان من هويدا إلا أنها اتخذت القرار السليم الذى اهتدى له عقلها فكبّلته بهفهفات شعرها المتناثر ولجّمته بعينين لم تكن لــ (نسرين) وقضت عليه بلمسة من أطراف أصابعها أوقدت جسده حتى الضلوع، سرسبته إلى القفص واحتفظت بسلسلة المفاتيح إلى الأبد.

السهام وإن كثرت فالجرح الغائر يكفيه سهم واحد

صار طاهر في السنة السادسة وحينها كانت لحظة الخلاص قد آنت بالنسبة لفاطمة وبضغط من طاهر وبإظهار وجه تعلم ست البنات أنه مجرد (Mask) استأجرت ست البنات لطاهر ووالدته شقه في المدينة التابعة لها قريتهم ادعاءً منهما أن الدكتور لابد أن يتدرب في المستشفى الميري طيلة الأيام التي لا يذهب فيها إلى الكلية وبالطبع كان لابد من تزويد الشقة بتليفون أرضى حتى يستطيع الدكتور أن يتواصل مع أقرانه بل فيما بعد أصبحت فاطمة تتشدق فخراً أن التليفون لا يتوقف ليل نهار عن الرن لأن عمدان المستشفى صارت لا تقوى على فراق الدكتور وأن المرضى يتغزّلون في (خدوده) التي تمنحهم رؤيتها الشفاء، لقد فاق طاهر مجدى يعقوب فلم يكن للثاني نفس الخدود بالطبع.

هويدا انتظرته سنوات قليلة حتى افتتح عيادته بالمدينة كانت بحق عياده مميزة في إحدى العمارات في الدور الثاني علوى في الشارع الرئيسي وزينتها من الخارج يافطة بحجم ضخم على غير عادة أقرانه من الأطباء في المدينة كتب عليها :

دكتور / عماد عطا الله – نساء وتوليد

كم أُسعدت ست البنات بـ عطا الله وكم توسمت في عماد خيراً ظنته بعيداً من قبل وبأن الدم لا يصير ماء بينما كان عماد وبمشورة هويدا يبحث عن نغمه الاسم (حلة ولقت غطاها).

مضى عام على افتتاح العيادة، ذاع صيت الدكتور عماد عطا الله في أقل من ثلاثة أشهر، كان بالمدينة أربعة أطباء متخصصين من قبل وصار هو خامسهم، استمد شهرته من امكانات العيادة المجهزة على غرار عيادات القاهرة فلم تُقصّر ست البنات مع الطبيب الشاب في أي شيء وبعد مُضى العام صار (نمبر وان) في المدينة، ربما ساعده في ذلك وسامته التي ورثها عن أمه وجدته لأبيه رغم خدوده المنتفخة وربما اسم عطا الله الذى جلب له هوانم المدينة والقرى التابعة لها وتغافلوا عن موت سيدتين على يديه في أول عام له مع طب النساء والتوليد (عمرهم وأجلهم انتهى) كان عماد راضياً إلى حين وكانت هويدا لا زالت تقبض على مفتاح القفص بيدٍ من حديد أما فاطمة فكانت تنهر من لم يناديها بـ أم الدكتور.

صارت الأمور سانحة لإتمام زواج الطبيب وهويدا التي اتخذت القرار ومما أقرته أيضاً أن تستقل بشقة أخرى في عمارة جديدة من خمسة أدوار في كل دور شقتين كانت عمارة هي الأفخم ولم تُشغل إلا بثلاث شقق فقط أحدهما لمدير أحد البنوك والثانية لعميد شرطة والثالثة لأحد الأثرياء العائد من العراق بعد عشرة أعوام، خيّرها صاحب العمارة فاختارت الشقة في الدور الثاني علوى بجوار شقة مدير البنك، عارضت فاطمة ذلك بشدة في أول الأمر ولكن هويدا كانت على درجة من المهارة وكيد النساء حيث أقنعتها بل حببت إليها فكرة الاستقلالية وضربت لها على الوتر الحساس فاستقدمت لها خادمة نادتها من أول لحظه بـ (ست هانم أم الدكتور).

وهنا أشبعت بنت العمدة رغبة حرمت منها في وجود سيف عطا الله كم كانت هويدا حاذقة وكم كانت فاطمة سهلة الاحتلال.

طُبعت كروت الدعوة في القاهرة وكُتب فيها (يتشرف الطبيب الشهير د. عماد عطا الله بدعوة سيادتكم.....)

استاءت ست البنات من عدم ذكر ابنى عمه فبرر ذلك بأنها (موضة يا عمتي) وبررت هويدا لأبيها عدم ذكر اسمه بـ (هو حر يا بابا) كم كانت هويدا صاحبة قدرات خاصة في اجتياز المصاعب وفك شفرات البشر.

مضت الأعوام واكتفت هويدا بغلامين (مدحت على اسم أبيها، وأحمد على اسم أخيها) تقبَّلوا اسم (مدحت) لكنها بررت الثاني بأنه تيمناً ومحبة في الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كم كانت صاحبة دين وتقوى إلى حين أن تسكت ست البنات والباقون.

كانت زيارتها للبلد مع الولدين نادره تقريباً في العيدين فقط ثم بعد سنوات انقطعت تماماً لأن الدكتور صاحب المهنة المقدسة والقلب الفضفاض لا يتوانى عن مساعدة الناس حتى في العيدين رغم أنه كان يقضيها في رأس البر أو الإسكندرية.

بعد عشر سنوات استبدل الدكتور العيادة في شقة أكبر وبإمكانات أعظم وأصبح يعاونه ممرضتين وثالثه لتحديد مواعيد الزبائن واتسع في مجال علاج العقم الذى أضاف ذكره لليافطة المضيئة التي كانت الأولى من نوعها في المدينة.

لم يمض عام على استئجارهم شقة السكن إلا وامتلأت العمارة تماماً بعشرة سكان من الصفوة، ونال اقتراح هويدا على صاحب العمارة بأن يعيّن لهم بواباً انبهار الرجل ومما زاد من اقتناعه بفكرتها التي أقنعت بها الجميع أن يدفع كل مستأجر عشرين جنيهاً بإجمالي مائتي جنيه للبواب الجديد بشرط أن يقضى للسكان جميع احتياجاتهم ووافق درويش البواب فالمبلغ كان منتهى الطموح لخريج دبلوم الزراعة الذى كان يعمل في (الفاعل) وبعد فترة كانت هويدا أكبر المستفيدين فإن قضى درويش لأحد السكان حاجة قضى أمامها لهويدا ثلاث و أربع حاجات (نحلت وبره) ولولا بعض الهبات من بعض سيدات العمارة لفرّ هارباً من وجه هويدا لكن سلطان المال كان أحدّ من متاعبه وذهابه وإيابه.

بعد عامين من زواجها وسكنها في العمارة صارت هويدا (أنتيمة) حرم مدير البنك، لم تتعجل وانتظرت الفرصة حتى أتت فلقد كانت السيدة منى حرم المدير على وشك أن تضع حملها بعد ١٥ عام من الزواج بلا أطفال وبالطبع كانت تتابع مع الدكتور عماد وما إن وضعت حملها فكانت هويدا سبّاقه بأن جعلت الطبيب يتنازل عن تكاليف الولادة (هدية من الأخت

لأختها) ناهيك عن أنها لم تدفع شيئاً أثناء متابعة الحمل (دي حاجات بسيطة يا منى هانم).

وفى زيارة عائلية وإذ بالكلام يجرّ الكلام فوجهته هويدا نحو دراستها وكلية التجارة وكيف كانت متفوقة وكيف أن المرأة تحتاج العمل لإثبات ذاتها ولتأمين نفسها ضد غدر وعثرات الزمن مما أثار إعجاب السيد المدير على عكس زوجته التي رفضت أن يعيّنها في البنك في أول زواجها وحتى طوال الأعوام التالية، وهنا أحكمت هويدا إغلاق الصندوق على جناب المدير الذى عرض خدماته وبإلحاح لتدبير وظيفة لها في البنك كرد لـ "جمايل" الدكتور وحرمه... تم تعيينها في أقل من شهرين في البنك فرع المدينة التي يقطنونها.

بمجرد موافقة ست البنات على بناء البرج وكما اشترطت كانت هويدا في أسعد حال حيث أن الهدف الأساسي من البرج هو تشييد مستشفى تخصصي على طراز فريد في الأدوار الثلاثة مع تخصصات محددة (النساء والتوليد – العظام – المخ والأعصاب – الجراحة – الجلدية) فإن كثر الشجر من حولك فثبت ناظريك على الثمار الناضجة ولا تنتبه لسواها.

أتم أبناء العم الثلاثة الاتفاق بحضور المحامي وست البنات وكان الاتفاق ينص على أن يتملك كل من عبدالله عبدون عطا الله وفاروق فؤاد عطا الله دوراً كاملاً لكل منهما على أن تكون الأدوار الباقية كاملة للدكتور عماد وفى حالة البيع فالأرض ثلاثية المِلك بين أبناء العمومة الثلاثة.

أقل من عام وشُيد برج عطا الله، الدور الأول علوى لعيادتي العظام والمخ والأعصاب بينهما استقبال مشترك والثاني علوى للجراحة والجلدية باستقبال مشترك والثالث علوى يحتوى على ثلاث غرف لإجراء العمليات المختلفة أما الدور الرابع علوى فكان لعيادة النساء والتوليد، لقد تخلى الطبيب هذه المرة عن الدور الثاني علوى فقد رأت هويدا أن المراقبة تكون أسهل من أعلى، وتم تعيين ابن خالتها رئيساً للطاقم الإداري وابن خالتها الأخرى رئيساً لطاقم التمريض.

أما البدروم فجعلوا به غرفة للطوارئ والحالات السريعة ومعظمه كان استقبالاً عاماً للاستعلام عن شيء أو انتظاراً من أهالي وزوار المرضى.

طابت لهويدا دنيا البنوك وتلاقت روحها مع رائحة البنكنوت وعمّقت جذورها وتشعبت ثم تسلقت لفرع البنك الرئيسي فأحسنت التسلق حتى نُقلت إليه فصعدت إلى قمة شجرة العلاقات وبدأت اللعب (من تحت لتحت) وأصبحت سمسار بنوك وأراضي فيما ظنت أنه في الخفاء لقد كانت مبدعة في التقليب والتهليب والاستثمار أحياناً فاستطاعت أن تقنع صاحب الأرض المجاورة للبرج أن يؤجّر لها أربعة قراريط فقط في مقابل مليون ونصف جنيهاً لمده عشرة أعوام ولّما كان الرجل لا يمتلك سوى ثمانية قراريط كما أنه ليس لديه القدرة على البناء ولا يمتلك غير راتبه هو وزوجته فقد كان المبلغ مغرياً لكنهم زادوه إلى مليون وسبعمائة وخمسين ألف فوافقت هويدا بشرط أن يكون الدفع شهري بحوالي ١٤٥٠٠ جنيه وبالفعل أحاطت المساحة كلها بسلك شائك قوى ومحكم وأقامت فيها قهوة شيك تعمل على مدار الـ ٢٤ ساعة وعينت به اثنين من الخفراء ليلاً مزودين بسلاح واثنين من (الركّينة) وزودت المكان بخدمة غسيل السيارات واستطاعت أن تجنى أكثر من ٦٢٠ الف جنيه شهرياً كربح غير إيراد القهوة.

كانت علاقة هويدا مع فاطمة تسير كما تخطط هويدا ولم تجد صعوبة في ذلك، كانت الصعوبة من قبل من الممكن أن تأتى حينما كانت الثانية تحتفظ بشبابها وعنفوانها لكن الآن هيهات وقد نال منها الشيب ما نال حتى أنه طال خادمتها التي لم تشب شعراً ولكنها قد شابت بدناً من فرط شقائها مع (ست الهانم أم الدكتور).

ولّما كان للشيب ذلته ولما كان للوحدة سمومها فقد أصيبت فاطمة بهياج دائم مع (الطالع والنازل) وعلا صوتها وصارت على حد قول الشغالة:

بقت حاجه صعبة قوى يا ست هويدا هانم.. آه والختمة الشريفة.

كان القرار أن تنتقل أم الدكتور إلى البرج واستقطعت لها هويدا نحو ٤٠ متر من البدروم من الجهة القبلية وأقامت لها غرفة للنوم وحمام صغير ومطبخ أمريكي واستقبال ضيق وُضع به أنتريه مستعمل، حيث يبدو الوضع إن حدث وشاهدها أحد أن فاطمة تحب الاستقلالية ولديها (هلع وفوبيا) من الأسانسير فاختارت وبإلحاح أن تسكن البدروم:

(يا حبيبتي يا حماتي إهيء إهيء إهيء)

أما عن خادمة فاطمة فلا بأس أن تقضى دقائق معها وساعات في خدمة مرات الدكتور.

ضمنت هويدا بذلك السيطرة على العجوز وأحكمت القفص وأقبضت على مفتاحه واستخدمت مع حماتها أسلوب (العصا والجزرة) وما كان من صاحبة الشيب إلا الطاعة فمن في مثل عمرها لا يمتلك إلا الطاعة.

(أبدان بتخلّص من أبدان)

الأدوار العليا الأربعة إلى جانب البدروم قد رُبطا باثنين من المصاعد (الأسانسير) أحدهما كبير لنقل سراير العمليات وعند الدور السادس علوى تم إغلاقه وفصله عن الدورين الباقيين حيث خصص الدكتور الدورين الخامس والسادس علوى لابنيه مدحت وأحمد أما الدورين الآخرين فكان لعبد الله عبدون وفاروق فؤاد كما اشترطت ست البنات ولكنها أرادت لهما الراحة ولكنهما لم يختارا لكن لا بأس (الأسانسير موجود).

اليوم هو عيد ميلاد ست البنات التي أقنعوها بضرورة الاحتفال بها احتفالاً يليق بكونها سيف عطا الله وبما أنعم الله عليها من سعة العمر فوصولها عتبة المائة عام مناسبة لن تتكرر(قالتها هويدا).:

- يعنى هموت خلاص يا مرات الدكتور

بعد الشر عن قلبك يا عمتو وحياة ولادي ما أقصد إهيء إهيء إهيء

كم كانت هويدا ممثلة بارعة وتحت الضغوط ولم شمل العائلة (والنبي يا عمتو) وافقت السيدة التي كانت تهوى ركوب الأسانسير.

والضحى

هلت خديجة ممسكة بكوب من اللبن الكبير وكوباً آخر (علشان التسقية):

- تسلمي يا حبيبتي
- عاوزه حاجة تانية يا جدتي
- لا شكراً
- أنا هروح المطبخ أجهز حاجة انهارده
- ربنا يديكي العافية ويقعد لك في عيالك

كانت خديجة تُعد من بعد الفجر تجهيزات المطبخ لليوم وتقوم بتنظيف الأواني ومتعلقات المطبخ و (ترويق) البيت وغرفة نوم الجدة ولكن في حضورها وتُعد لها الإفطار بين العاشرة والحادية عشرة بعد أن تصلى ست البنات صلاة الضحى، وبعد أن تصلى السيدة فرض الظهر

أو قبله بقليل تعود خديجة إلى بيتها لتعد الغداء لأبنائها ولزوجها الذى يكون قد عاد من السوق ثم تعود مع صلاة العصر في أي وقت لإعداد وجبة غداء للسيدة بينما في وقت غياب خديجة عنها بين الظهر والعصر تكون السيدة قد نالت قسطاً من النوم (القيلولة).

في هذا اليوم بالذات (يوم ميلادها) وبينما أعدت لها خديجة الإفطار وقبل أن تتناول أول لقمة فإذا بصوت أجش ينادى (عمتووو) أدركت أنه صوت المهندس عبدالله عبدون والذى بمجرد دخوله من باب السور هرول سريعاً نحو ست البنات التي كانت تتناول إفطارها في (الفراندة) حتى ترى الشارع وتستأنس بالمارة حتى وإن كانت هي من أطلال الماضي وهم أبناء هذا الزمن الذى بالكاد تطيقه ويملؤها أمل اللقاء بالأحبة لكنها كانت على قدر من الإيمان مما جعلها تتفهم تماماً أن تقدم العمر بها إنما هو رزق وكانت على قدر كبير من الصبر والتحمل حيث احتملت سخافات لا يحتملها من هم في عمر أحفادها.

كانت تناوبها أفكار أبيها وتعتقد فيها تمام الاعتقاد، كان عطا الله محجوب يؤمن أن البيت حتى يكتمل سِتره لابد أن يكون أمامه فسيح من الخلاء من الأمام ومن الخلف، كان الرجل يستنكر شقق المدن فبمجرد دخولك من الباب وكأنك صرت من أهل البيت رغم أنك لست منهم، ربما كان ذلك تديناً أو عرفاً أو خصوصية نبعت مع الميلاد وتدفقت مع الدماء في الشرايين.

كانت فراندة بيت عطا الله تزيد مساحتها عن مائة متر لم يستجد عليها سوى الرخام الذى يحتل أرضتيها والدهان الذى يبدو على شاكلة دهان المساجد بما على حوائطها من زخارف رسمها محترف فإن رأيتها لأول مرة ربما مسّك رهبة من البيت وأصحابه.

كانت (الفراندة) شاهداً أصيلاً على الجلسات العرفية التي كانت تُعقد هنا وعلى (العزومات) حيث كان يجلس أهل البلد من القريبين أما البهوات وكبار القوم كانوا يجلسون في غرفة الضيوف، الاثني عشرة (كنبة إسطنبولي) احتملت رجالاً ربما بالآلاف وتحملت صراخاً واحتدامات لا يتحملها بشر أثناء الجلسات العرفية.

أما الجنينة فكانت ذات شأن في الماضي، تزينت بأشجار التوت والبرتقال وتكعيبة العنب وفواكه أخرى كانت تكفى متطلبات البيت إلى حين أما الخضروات الأساسية من كرنب وبازلاء وفجل وجرجير وشبت وكسبرة وبقدونس كانت تحقق للبيت الاكتفاء الكامل طوال العام تقريباً.

تغير الحال الآن ولم يبق في الجنينة سوى شجيرات متفرقة تنطق بغدر الزمان وحل محل بعضها بعض أشجار الـــ (فيكس) فتُبقى على شيء من اللون الأخضر حتى لا تزول النعمة ولا يصيبهم مكروه.. هكذا ظنت.

حاولت أن تستأجر من يهتم خصيصاً بالجنينة وخصصت لهم راتباً شهرياً لكن دون فائدة ملموسة لم يستطع أحدهم أن يعيد الجنينة إلى سابق عهدها وكما كانت حتى أنها استقدمت أكثر من مهندس زراعي لكن بلا فائدة أيضاً، وبعد محاولات متكررة أيقنت أنه (مفيش فايدة) كان أمر الجنينة يلهب قلبها بحزن كفراق أبيها ولم يريحها فقط إلا شجرة الرمان التي أمرت بقطعها واجتثاثها من الجذور، تلك الشجرة التي التقت عندها مصطفى علاّم في غفلة من أبيها وأخوتها، ولازالت تذكر طرائف عن تلك الجنينة فيوم أن وضعت (روج) كانت قد أهدته إليها ابنة أحد أصدقاء

أبيها من بهوات القاهرة يومها انتزع الرجل عرفاً صلباً من شجرة الصفصاف ولقّن جسدها درساً للعمر ولم يعبأ بأن الضرب في الليل مكروه، والحلاق أبو نصير الذى كان يهوى أن يأتى على فترات فينتزع ثلاث برتقالات ويذهب ليخبر عطا الله أنه استغفلهم وظفر بالبرتقالات ورغم أن عطا الله كان قد أعطاه رخصة أن يأخذ ما يشاء كيفما يشاء ووقتما يشاء إلا أن الرجل كان يشبع رغبته في استغفالهم كان يرى في ذلك انتصاراً.

كم يحتاج الفرع أن يستأنس بالأصل والجذور، كان عبدالله يعمل مهندساً في قطاع البترول يذهب للعمل أسبوعين و أجازته أيضاً تمتد لأسبوعين وكان من عاداته أن يطل على عمته على الأقل ثلاث مرات في الأجازة مصطحباً معه زوجته إيمان وابنتيه شروق وسلمى وآخر العنقود التي رُزق بها منذ عام (جويرية)، كان أبو البنات حريصاً على ود ست البنات.

كانت رقية على درجة من العقل والنضج بحيث لم تصطدم (طوال بقائها في بيت البلد) بالعمة إلا نادراً وكانت تدرك تماماً أن العمة لا تقبل أن ينتصر عليها أحد حتى في أبسط الأمور فطاب عيشها واستقرت عيشتها في البيت.

هذه المرة لم تأت سلمى معهم لأنها لا تستطيع أن تتغيب حصة واحدة من حصص الفيزياء لأن الأستاذ (المستر) يعنّف من يتغيب، كم كان ذلك الأستاذ عبوساً كبعبع الفيزياء الزائف وجافاً كأرض (شراقي) تشتاق إلى قطرة ماء.

- فين سلمى يا عبدالله.. فين البت يا رقية
- معلش يا عمتي دروس بقى أنتي عارفة وعموماً هتشوفيها بالليل إن شاء الله
- ربنا ينجح مقاصدها

وكان عبدالله من الذكاء أن يأتي إلى عمته في وقت طعام فيؤنسها ويجبر بخاطرها ولم يدخل عليها مرة إلا وهو يحمل أغراضاً، كانت تستلذ بحبات الجلي كولا التي كانت يجلبها إليها.

- يا خديجه زودي الأكل
- حاضر يا جدتي

التفوا جميعاً رقية وعبدالله وإيمان وشروق وجويرية على رجل العمة، وسارع عبدالله إلى التهام الجبنة الفلاحي والعسل الأبيض بينما استرسلت خريجة الاقتصاد والعلوم السياسية في أكل ملاعق الزبادي الطبيعي واللبن.

ذات يوم وعلى غير العادة استيقظت ست البنات من قيلولتها على صوت رقية وصيحاتها، وشيء من (الردح) وكثير من سلاطة لسان فاطمة، كان عماد يقلّد أحد أفلام السبعينيات فضرب ابن عمه (عبدالله) على رأسه فشُجت وانسال الدم من رأسه مما استلزم ثلاث غرز عند طبيب المدينة د/ جرجس.

لقد امتلكوا تليفزيوناً منذ مطلع السبعينيات

لم يُذكر أن رقية قد هاجت كهياجها تلك المرة أو عنّفت أحداً او اشتكى منها أحد من قبل، كانت رزانتها تعطيها القدرة على حسن التصرف تبتسم حينما يشتد غضبها وتكتم غيظها بين ضلوعها إن اغتاظت حتى أن بعض النسوة ممن كانت لهم (خلطة) ببيت عطا الله كانوا يرونها (كهينة).

كان حبل ودها مع فُتنة ممتد ولم يكن لديها وصال مع فاطمة إلا من (كلمة ورد غطاها) فأراحت بذلك نفسها واستراحت.

طابت الأيام لرقية زوجة المرحوم عبدون وابنها عبدالله في بيت البلد، وكان الولد منذ صغره يلعب دور المنسق بين ابنى عمه ربما لأنه كان أوسطهما، وربما أورثه أبوه تلك الوسطية وربما تشبّع بها من حليب (الكهينة).

كان قليل المذاكرة لكنه كان لماحاً ألمعياً اختار شعبة الرياضيات في الثانوية العامة ودخل كلية الهندسة بمجهود متوسط في المذاكرة، كانت (ست البنات) تريده طبيباً كابن عمه ظناً منها أن الأطباء في فلك لا يسبح غيرهم فيه ولا عجب فللمجتمعات أفكار توارثتها الأجيال وصارت عقائد لا تقبل المناقشة.

ومن قدرات سيف عطا الله أنه كان لا يُستل إلا إذا لزم الأمر فإن راجع نفسه فأدرك خطأً ما فليُعاد السيف إلى غمده.

أفهمها عبدالله ماذا تعنى كليه الهندسة وقيمتها غير أنه لن يبتعد كابن عمه فقد كانت جامعة الزقازيق قد افُتتحت قبل سنوات قليلة وسوف يلتحق بها وأطلعها على أحلامه في السفر واكتشاف آبار البترول وكيف أنه بذلك يساهم في خدمة الوطن، فأرضاها بذلك واطمأن قلبها.

لم يغادر عبدالله وأمه بيت البلد حتى زواج عبدالله من إيمان التي كانت تعمل في روضة للأطفال غير أنه اشترط عليها أن تترك العمل لأجل المصلحة الأكبر (البيت) فوافقت ببساطة عن اقتناع إلا أنه لم يقف أمام رغبتها في العيش في المدينة بل رآه حقاً من حقوقها واستأجر شقة معقولة وبقيت رقية مع ست البنات في بيت البلد لمدة عام حتى إن صارت إيمان في شهر حملها السابع رأى عبدالله ضرورة استقدام أمه للعيش معه من باب الاستئناس بها وأن تكون صمام أمان لزوجته والسبب الأقوى أنه كان لا يحب أن تذهب زوجته إلى بيت أبيها في أيام غيابه عن البيت.

لقد كان يوماً من الأيام الصعبة على سيف عطا الله، فالأولى التي غادرت قد ألقت من خلفها عشرات الأزيار، ولكن هذه المرة أحست بوجع الفراق لكن المصلحة العامة تقتضى ذلك وعلى من اختارته الظروف أن يتقدم الصفوف أن يعلو بمصلحة الآخرين فوق مصلحته الشخصية ولو على حساب راحته واكتمال طمأنينته.

كانت (حِنة) عبدالله فرحاً حقيقياً لأنه اشترط على صهره أن يسافر يوم الفرح إلى أسوان لقضاء (شهر العسل) حيث كان زفافه في يناير فأقام ليلة حِنّاء لم تشهدها القرية ولا حتى المدينة، عجلين كاملين أصرّ أن يدفع ثمن أحدهما والعجل الثالث وهبته ست البنات بالكامل لفقراء الله.

استقدم فريقا غنائياً من المنصورة وفرقة للفنون الشعبية من الزقازيق وأقام صواناً مكون من ٦٠ قطعة قماش كسقف ورص نحو ٢٠٠٠ كرسي خشبي ورغم هذا تزاحم الشباب في الأرض الفضاء أمام الصوان ، وحرص عبدالله أن يُحضر لمعازيم صهره سيارات تنقلهم وتعيدهم بعد انتهاء حفل الزفاف في ليلة الحِنّاء.

عاش عبدالله وإيمان ثم لحقت بهم رقية حياة هادئة يحكمها العقل وجبر الخاطر، وهب الله له شروق ثم سلمى وبعد سنوات آخر العنقود (جويرية).

حينما انتهى الدكتور عماد من بناء البرج وعلم المهندس عبدالله بل وشاهد أدواره وكيف قسّمه وأين يقع دوره وكيف فصل ابن عمه بين مستشفاه ودوري أبنائه وبين دوري ابنى عمه لم ينزعج لكن إيمان كان لها تعقيب واستنقاص لنواياهم لكنه رأى أن الأمر لا يستحق فساكني الأبراج لا يهتمون إلا بالأسانسير فالدرج إن قُفل عليهم أو ظل مفتوحاً فلا قيمة لذلك، كما أن ابن عمه قد تكلف كثيراً في بناء هذا البرج وفى نهاية الأمر فهو يمتلك ثلث الأرض كوريث شرعي.

حينما ذهب للعيش في البرج كان قد قسّم الدور على شقتين الأولى عاش فيها والثانية لوالدته بكامل إرادتها بل وبإصرار غير أنها اشترطت وبمنتهى اللطف أن تبيت معها شروق وسلمى (طبعاً يا تيته):

ربنا ما يحرمني منكم يا حبايبي ولا يحرمكوا من أبوكم وأمكم وأختكم يا ننى عين تيته.

ولا بأس في الأجازات أن يجتمعن جميعاً في شقة واحدة على الأقل وقت النوم أما شروق وسلمى فاستتبت لهما الحياة في شقه (تيته) وتقريباً قاما بنقل جميع أغراضهما عندها وأطلقت شروق خريجة الاقتصاد والعلوم السياسية على شقه تيته (حزب تيته) :

وليحيا حزب تيته وليعيش يا يعيش يا يعيش يا يعيش.

ولأن العقل هو التاج الأعظم على رأس البشر وقمة الزينة ومنتهاها فاطمأن قلب أبو البنات إلى خلفته وإن سأله صديق لم يره منذ فترة عن عدد أولاده فكان يجيب :

- عندي ٣ بنات وأبو البنات سكر نبات... هكذا أخبرته أمه.

حينما كان يتم اختياره في كل ترقية في سن أصغر عمن سبقوه في المكان فيدرك أن هذا هو رزق البنات وحين نجّاه الله حين سقط من أعلى (البريمة) فتيقن أن هذا لأجل البنات وحينما عملت ابنته (البكرية) في جامعة الدول العربية أهداه قلبه إلى أن البنات هم الأصل وطين الحياة... أبو البنات سكر نبات.

وأصاب سهم العقل والتدبير شروق التي كان أمامها فرصتين ذهبيتين باعتبارها (نمبر وان) على دفعتها في الاقتصاد والعلوم السياسية، الفرصة الأولى هي الانضمام إلى سلك الخارجية والثانية هي العمل بجامعة الدول العربية فرأت أنها كـ (بنوتة) ستصبح يوماً ما حتى وإن بَعُد زوجة وأماً وعليه فلا يجب أن يطغى طموحها على أسرتها والحفاظ على كيانها وبالتالي فإن العمل بالخارجية يحتمل التنقل هنا وهناك فقبلت العمل في جامعة الدول العربية واستقرت أيام العمل عند خالتها التي صارت أرملة منذ عامين في رفقة بنات خالتها التوأمتين اللتين يصغرانها بأربعة أعوام وابن خالتها الذى لازال بالمرحلة الابتدائية.

لا زالوا جميعاً على مائدة إفطار العمة ولا زالت شروق تدندن في كوب اللبن وتسترسل في طرف الملعقة بعد أن تغمسه في طبق الزبادي:

- ما بتاكليش ليه يا بت يا شروق
- رجيم يا تيته هيرفدوني من الجامعة لو تخنت
- شوفت البت الأروبة.... يضحكون

انتهى الجميع من إفطارهم فأمرت ست البنات خديجة بإحضار السبرتاية، همت شروق لمساعدة خديجة في لم الأطباق فهذا مما علمتها رقية، (اللي يحب حد يلم أكله معاه) ذهبت رقية وعلى ذراعها جويرية إلى غرفتها القديمة وتبعتها إيمان وشروق بعد مساعدة خديجة، جلس ثلاثتهم وأخذت رقية كما اعتادت في قص حكايات وروايات عن كل شبر في غرفتها القديمة حكايات مع المرحوم وأثاث غرفتها الذى مضى عليه أكثر من نصف قرن ولا زال (بشوكه)، عن دراجة عبدالله التي حطمها عماد لأنه لم يكن يمتلك مثلها رغم أنها كانت من نقودها الخاصة حيث كافأته بها حينما نجح في الشهادة الابتدائية ولامتها وقتها (ست البنات) واضطرت لشراء دراجتين (واحدة لعماد والأخرى لفاروق) مثلها تماماً وميزت كل واحدة بزينة كان يضعها الأطفال على مقبض الدراجة وراعت بالطبع اختلاف ألوانها، ناهيك عن حكاياتها التي لا تنقطع عن عبدون وبعد أن تتحدث إلى صورته ذات البرواز الخشبي الفاخر (طراز الستينيات) ينزرف الدمع من مقلتيها مصاحباً بابتسامة الفخر كزوجه شهيد (أحياء عن ربهم يرزقون).

- السبرتايه يا جدتي حاجه تانية... لا شكراً يا نور عيني

ومما ورثته ست البنات عن أبيها إدمان القهوة فاليوم لا يبدأ إلا بعد أول فنجان ويستمر احتسائها بالمرات ومرات طول اليوم، كان هذا في السابق بالطبع لكنها منذ سنوات وبعد أن هددها الطبيب خوفاً على شرايين قلبها صمدت أمام لذة القهوة واكتفت بتناول فنجان الصباح الممتلئ نصفه أو أقل ولكن ما لم تمتنع عنه هو إشعال (السبرتايه) للضيوف كان في ذلك إشباعاً لرغبات حرمتها منها الشيخوخة.

عبدالله ورث عن جده عطا الله ومن ثم عمته عادة القهوة لكنه كان دقيقاً في معيار سكرها (مظبوط) وفى عدد مرات تناولها يشرب ثلاث مرات فناجين صغيرة الأول بعد الإفطار في الصباح والثاني في الظهيرة والأخير قبل السابعة تجنباً لحدوث أرق حيث أنه كان ينام في العاشرة مساءاً.

تناولت نصف فنجانها وعبدالله تناول فنجانه حدثته عن اليوم (حيث ذكرى ميلادها المائة):

- أما أنتو يا ولاد ليكوا حركات.
- صباح الخير يا ست الناس

لم يشعرا بالقادم إلا بعد إلقائه التحية، شهق الرجل شهقة المشتاق:

- ازيك يا باشمهندس
- واحشنى يا شُهدي وهاتك يا أحضان
- اقعد يا شُهدي... تسلمي يا ست الناس

كان شُهدي في نفس المقعد مع عبدالله في الابتدائية لكنه هجر المدرسة فقد كان بليداً بمعنى الكلمة وانصرف إلى مساعدة والده في زراعة الفدان الذى كان يمتلكه وكان له أختان لم يتعلما من الأساس فاستطاع أن يساند والده حتى زوجهما وزاد مساحة الأرض بكدّه وعرقه إلى فدانين وتزوج بعد الثلاثين ورُزق بثلاثة من البنين أكبرهم مدرس ابتدائي وأوسطهم مهندس بترول كان عبدالله السبب في تعيينه بأمر من العمة ولأجل عشرة الدكة القديمة وأصغرهم صيدلي تجاور صيدليته بيت عطا الله، كان الدكتور هشام شُهدي من سلسال طيب فكان يطُل على الحاجة بشكل يومي وقت العصاري يتناول معها كوباً من الشاي ويستريح قليلاً من (دوشة) الصيدلية ويتابع ضغطها وسكرها إن استدعى الأمر.

المهندس عبدالله كان ودوداً ولكن حسب الظروف فلا يحرص على الاتصال بأصدقاء الماضي ولكنه إن رأى واحداً منهم فيلقاه بترحاب يبعد الشك عنه في كونه ليس أصيلاً وناكراً لأهله وذويه ،كان سبباً مباشراً في تعيين خمسة من أبناء القرية في قطاع البترول بأوامر من ست البنات.

استعادا قليلاً من الذكريات فُشهدي على عجلة من أمره جاء فقط ليخبر (ست الحاجة) أنه انتوى زراعة خمسة أفدنة كاملة خضراوات:

- مكسبها إيه يا ست الحاجة.... نار نار
- قول بإذن الله يا شهدي
- كله بأمر الله يا ست الحاجة

ذلك إلى جانب المحصول الرئيسي في باقي الأفدنة، كانت ثقتها في شُهدي بلا حدود وكان هو أهلاً لهذه الثقة فالأرض في حوزته منذ عشرين عاماً فازداد الخير على يديه ربما عوّضه الله عن بلادة المدارس بعبقرية الطين بل قل أنه من صار من ظهره معلماً ومهندساً وصيدلانياً لا بد وأن مطعمه حلال وقلبه سليم وليس بليداً كما كانوا يدعون.. هكذا رأت ست البنات.

استأذن شُهدي وعاود عناق الباشمهندس عبدالله

هلت شروق وأمها وجدتها رقية واستعجلا المهندس عبدالله حتى ينهوا مشاغلهم ويستعدوا للاحتفال ليلاً بست البنات، وكما كان اللقاء حاراً كان الوداع، قبّلوا جميعاً تلك اليدين البارزة عروقها، واستقلوا السيارة وغادروا.

أتت خديجة على عجل لأخذ (عدة القهوة) وسألت إن كانت الجدة تحتاج شيئاً؟

- شكراً يا حبيبتي خدى بإيدي بس أتوضى علشان أصلى الضهر
- من عنيا يا جدتي

اتكأت ست البنات على عكازها ذو المقبض الفضة وأمسكت بيدها الأخرى يد خديجة التي انتظرتها حتى توضأت وأدخلتها غرفتها فاستلقت لدقائق قبل صلاة الظهر ثم أتمت الفرض ونادت على خديجة واطمأنت على أحوال البيت وأكدت عليها إحكام غلق الأبواب والنوافذ وأنبوبة البوتاجاز قبل أن تذهب إلى بيتها ومعاودتها مرة أخرى بعد العصر،

واستلقت السيدة على سريرها ووضعت رأسها على المخدتين وسكن جسدها وصفت روحها وذهبت في رحلة القيلولة.

ذات مرة تعرض السور المحيط ببيت عطا الله للاصطدام بسيارة نقل كبيرة فسارع عطا الله محجوب بسب السائق وحاول الاعتداء عليه إلا أنه قد فرّ مغادراً مسرعاً ليبدو السور وقد مال ميلاً شديداً فاستجمع عافيته وسنده بكتفه لدقائق ولم يحتمل فهرع إليه الثلاثة طاهر وعبدون وفؤاد وتناوبوا على سند الجدار المائل كي يستعدلوه ويستقيم من جديد، فأُجهدوا ولم يحتملوا إلا دقائق، فأشارت إليهم ست البنات بالابتعاد فأطاعوا سيف عطا الله فسندت الجدار بظهرها لا بكتفها كما فعلوا من قبلها، مر وقت أطول وأحست بآلام شديدة تأملت وانتظرت أن يناوبها أحد في المساعدة إلا أنهم قد اختفوا جميعاً أحست بـــ (طقطقة) في عمودها الفقري ولا أحد حولها فكرت في الابتعاد لكنها خشيت أن يسقط السور فتُلام من أبيها أو أحد إخوانها الذكور، وظلت الفقرات تتهشم فقرة تلو الأخرى حتى وصلوا إلى أربعة فقرات، هنا لاح أبيها في الأفق القريب فابتسمت أملاً في استعادة عافيتها التي قاربت على الفناء ففي أبيها الخير والبركة والإنقاذ فما كان من

عطا الله محجوب إلا أن أخرج ساعته (الكاتينه المعتبرة) ورفع لها حاجباً وردد على مسمعها:

- (لسه بدرى يا ست البنات).

نهضت ست البنات من قيلولتها بتأنن واستعاذت بالله من الشيطان، لقد كان كابوساً في وضح النهار، ولا غرابة في ذلك فهى تعلم أنها وبرغم وصولها إلى نادى المائة إلا أن صفاتها العجيبة التي مُنيت بها في الصغر لا زالت تلازمها حتى بعد أن صارت مئوية العمر ومن تلك الصفات والملامح أن معظم أحلامها أو تحديداً كوابيسها كانت نهاراً لا بالليل، دقائق وصارت هادئة وعاودت قيلولتها.

عادت خديجة اليوم مبكراً قبل صلاة العصر بنصف ساعة، فتحت الباب بالمفتاح الذى لا تأخذه إلا في هذا الوقت وأيقظت السيدة وساعدتها في تبديل ملابسها، كانت خديجة تلاحظ دائماً أن السيدة تعرق بشدة حتى في الشتاء :

- أملاح يا بنتي ربنا يكفيكي الشر

- ألف سلامة عليكي يا جدتي
- تسلمي يا حبيبتي

استعدت وأدت فرض العصر وجلست في الصالة (الوسطانية) التي تطل عليها الغرف الثلاث واتكأت على عكازها وطلبت من خديجة ككل يوم أن تأتيها بماء فاتر به بعض الملح كي تغمس قدميها فيه كانت تجد في ذلك دواء لها وراحة نفسية ولكنها طلبت منها أن تأتى بـ (الطشت) في غرفة المرحوم فؤاد – حاضر يا جدتي.

كانت فُتنة أقل النساء الثلاثة في امكانات المرأة المتزوجة (ست البيت) فهى لا تجيد فن الطبخ و ترتيب البيت أو الغرفة بسرعة لأنها كانت لا تطيق ذلك، ما كان يمتعها ويثلج صدرها هو أن تجلس بجوار ست البنات فتستمع إلى حكاياتها ويظل ثغرها مبتسماً حتى وإن سمعت منها مبكيات المبكيات.

مثل تلك المرأة لا تروق دائماً للرجال الذين ينتظرون منها (قمصة) كي يثبتوا قدرتهم على الإقناع أو عناد حتى ينفذوا أوامرهم رغماً عن أنفها فيثبت لهم وللآخرين أنهم النموذج الحى لإعلاء راية القوامة، لكن على العكس حيث كان فؤاد أسعد الناس بها فهى الوحيدة التي تناديه بـ (سي فؤاد)، ولّما كان في طفولته مدللاً وصار كذلك حتى بعد أن أدرك ريعان الشباب فلهذا وجد فيها المنال والمنى فهى لا تسأله أين تذهب؟ ولماذا تأخرت؟ وبالطبع لن تسأله عن التزام من التزامات الحياة لأن العمة وتحديداً مع فؤاد كانت هى المسئولة من الألف إلى الياء.

كانت ست البنات ترى أن فُتنة (طِيبة تمشى على الأرض) فلا بأس إذن أن تصاب بنقص في طهى الطعام أو ترتيب البيت أو عدم إجادتها لصنع فنجان قهوة على عكس فاطمة التي كانت تجيد فن القهوة فكان الفنجان وإن اقترب من (الشفطة الأخيرة) فلا زالت آثار (وش) القهوة موجودة :

- (الحلو مبيكملش والوحش مابيسلمش)

بعد آدائها لفرض العصر خرجت لحالها إلى (الفراندة) فهذا هو الوقت الثابت بالنسبة لها لتتبع الناس في الشارع الذى استجدت عليه أشياء كثيرة في تلك القرية التي لم تفارقها السيدة طوال مائة عام، جلست إلى مقعد من سعف النخيل (الجريد) ومن تحتها (شلتة) ومدت قدميها إلى كرسي آخر حيث أن تقدم العمر قد يجعل الأرض لا تحتمل قدمي تلك العجوز ربما لأن الماضي يبدو ثقلاً على كاهل البشر والتراب.

أُصيبت السيدة في الأعوام الأخيرة بتحديد حجم البصر فتحددت إقامتها كانت الأرض أمامها في الجهة البحرية حتى عام ١٩٨٥ خاوية تماماً فقد كانت أرضاً زراعية تعج من بعد الفجر بفتيات (الشتل) ونهاراً بالحيوانات والدواب وطول اليوم بقهقهات الفلاحين على جسر الترعة التي تحد الأرض من الخلف.

وبعد ذاك التاريخ غُرست أول حربة في خاصرة الأرض وبنى أول بيت فيها كمناهضة لأول صوت رُفع للمطالبة بما أقرّته الشريعة... الميراث.

حين كان تختلى إلى حالها كانت تلوم نفسها وتؤنّبها حيث أنها ومن قبلها عطا الله محجوب ورغم ما كان لهما من نفوذ لم يستطيعا إيقاف ذاك

الجرم والعرف الأعوج في القرية، حيث كان أهلها وعلى غير طبيعة من حولهم من قرى بل على غير ما أتت به الشريعة السمحاء كانوا لا يورثون البنات إلا من رحم ربك، صارت عادة وظنوا أنها من العبادة وآه لو يعرفون كم كان ذلك إثماً عظيماً لكن من المؤكد أنهم قد عرفوا وتيقنوا حينما صاروا من ساكني القبور.

كانت تلك الأفدنة الخمسة التي تواجه بيت عطا الله لخمسة من الأشقاء ثلاثة بنات وذكرين أولهما الأستاذ نجيب الذى يعمل معلماً في البندر بشهادة الابتدائية التي حصل عليها والثاني هو صدّيق الذى كانت الأرض تحت يديه، يأتي في نهاية العام ويلقى لأخيه بالفتات والآخر لا حول له ولا قوة أمام سيطرة أخيه وربما لأن راتبه كموظف كان (غانيه ومكفيه).. ربما.

استطاع صدّيق في السبعينيات أن يحصل على عقد إيجار للأرض كلها من أخيه أما البنات ومن قبل ذلك فلقد جمعهم في ذات يوم معاً دون أزواجهن وقامت زوجته (القرشانه) بذبح دكرين بط وثلاث عتاقي فامتلأت بطونهن ولما حبسوا بالشاي تساقطت دموع صدّيق في كوبه (الذى

أمسكه بيسراه) من فرط المعاناة التي يتكبدها في المعيشة وأن المسئولية ثقيلة على كاهله وأنه إن نازعه أزواج البنات (على حد تعبيره) في أرض أبيه فهو يخشى ألا يقدر على ودهم والالتزام في إرسال (المواسم) لهن بانتظام وترحّم الرجل على والده الذى قد حصل منه على أوراق رسمية ببيع الأرض فقد قام بتبصيمه أثناء مرضه الأخير، لقد خدع صدّيق الرجل وأثقل ميزان سيئاته وهو رقيد بلا حول ولا قوة في فراش المرض لكن الله مطّلع على عباده من فوق السموات السبع وهو أرحم الراحمين.

ظل صدّيق متستراً على فعلته وأبقى الأوراق معه كآخر كارت يلقى به على (الترابيزة) ولكن كثرة (وحوحته) لأخيه ورقة قلب البنات كانتا كافيتين لأن يصل إلى مقصده ومبتغاه، فنصيب البنات صار ملكه بدكرين بط وثلاث عتاقي ونصيب أخيه صار ملكه نظير عقد بنظام الإيجار القديم وبدفع ملاليم له ولأبنائه من بعده ولا بأس من زيارة كل عام حتى يبدو صاحب شهامة ومروءة وواصِل لرحمه أمام الناس.

صار يمتلك رسمياً حوالى ٨٥ قيراط من أصل ١٢٠ قيراط والفرق للأستاذ نجيب وبمضي الأيام تناسى صدّيق مواسم البنات بل وزيارتهم من الأساس.. ربنا يعينه صاحب عيال.

في عام ١٩٨٥ كان أحد من أبناء البنات قد صار محامياً وتيّقن من جبروت خاله على أمه وخاله وخالاته ورغم أن العرف السائد وقتها في القرية (شفط البنات) إلا ان الأفوكاتو فتح الموضوع مع خاله فلم يلق منه إلا الشتيمة وقلة القيمة فسارع برفع قضية بعد عناء في إقناع والدته وخالاته يتهمه فيها بالتدليس والإكراه، وعلى الجانب الآخر استعان خاله بمحامي مما أُبتليت بهم البلاد الذين يلعبون بالبيضة والحجر فأشار على صدّيق ببناء بيت وسط الأرض على أكثر من دور (وأهو يبقى للعيال) وهنا أخذ المحامي العقد القديم وقد كان رسمياً موثقاً في الشهر العقاري وضمه لأوراق القضية وإن حدث وشككوا فيه فليأتوا بالمرحوم لمطابقة بصمته.. أعوام وحُسمت القضية لصالح البيضة والحجر.

وحتى تكتمل وتزهو لصدّيق فقد اشترى من أبناء أخيه أرضهم بعد موت الأستاذ نجيب بثلث الثمن (الجار أولى بالشفعة ربنا يرحمك يا أخويا ودموعه تتساقط في كوب الشاي)

ناهيك أن نصف الأرض لم يُحتسب من الأساس وفق العرف السائد الذى استمد قوته من قانون الإيجار القديم وعليه فلقد ابتلع صدّيق نصف الأرض الأخرى بثلث الثمن (حار ونار في جتته).

سنوات تمر ولاقى صدّيق ما هو أمر فقد سقط مريضاً وظل رقيداً لأكثر من عشر سنوات ماتت زوجته فلم يتلق العزاء فيها، زوّج ولديه الوحيدين ولم يحضر فرحهما لقد كانا كأبيهم من مرضى القلوب وأصحاب نواقص في النفس التي فُطرت على الخير فلقد كان الشابان من هواة اللهو دائماً والعربدة أحياناً من سافر منهما إلى الخليج عاد كـ (خيبتها) ومن فتح مقهى قد صار غرزة، واضطر ولدى صدّيق في سنوات مرض أبيهم أن يبيعا الأرض كاملة بعد أن قاما بتبصيمه هو الآخر وهو راقد في فراشه، وسبحان مغيّر الأحوال ومقلّب الأمور فقد اشترى معظم أبناء عماتهما معظم الأرض والقليل الباقي اشتراه نفر من أهل القرية، وما إن بيعت آخر حبة طين في

الأرض لم يمض سوى شهرين ومات صدّيق وشهر آخر وباع الشابان البيت ورحلا بلا رجعة.

أدركت ست البنات أن السيف حينما يوجه إلى اتجاه فهو حتماً يغفل اتجاهات أخرى فكيف لسيف عطا الله الذى رهبه الناس أن يغفل عن ظلم كهذا ربما لأن أحداً من بنات القرية لم تشتكِ يوماً وصار استسلامهن إدماناً.

- الشاي يا جدتي
- مشوفتيش الأستاذ عبد الحليم يا خديجة؟
- لا والله يا جدتي مشوفتوش من آخر مرة كان هنا
- يجعله خير إن شاء الله

عبد الحليم يعمل موظفاً بالضرائب العامة هو ابن إحدى شقيقات صدّيق أحد الذين اشتروا جزءاً من أملاك أمه وخالاته التي اغتصبها المرحوم بدكرين بط وثلاث عتاقي سافر إلى العراق ثلاث سنوات كان (مُرزقاً بصحيح) عاد إلى الوطن حينما آتاه جواب القوى العاملة أنفق كل ما

أتى به في شراء فدان ونصف من أبناء خاله وبنى بيتاً هو الآخر وأتى بأمه معه بعد أن تزوج وصار (مأمور ضرائب قد الدنيا).

كان حريصاً لكنه لم يكن بخيلاً حافظ على أرضه التي صارت الآن جميعها (أرض مباني) تقترب قيمتها من عشرة ملايين جنيهاً، ورغم أن القرية بأكملها اكتظت بالمباني إلا أن أرض عبدالحليم كانت هي المنفذ الوحيد في القرية حتى أنه كان يسمح لمن أراد أن يقيم فيها مأتماً أو فرحاً دون مقابل.

كان حريصاً على تعليم أبنائه على أكمل ما يكون وفى أحسن شكل، كان من أوائل الذين دفعوا بأبنائهم إلى التعليم الخاص لإدراك ووعى منه أن عدم اللحاق بكليات القمه بفارق بسيط لا يعنى أبداً أن الولد او البنت لن يصبحوا متفوقين إن لحقوا بركب التعليم الخاص بل أدرك أن العكس هو الصحيح، وبالفعل باع قيراطين فقط لأجل الولد والبنت وقد صارا الآن طبيب علاج طبيعي مميز وطبيبة أسنان قد الدنيا.

رغم أنه الوحيد في أبناء عمه الذى احتفظ بأصدقائه (شلته) دون أن يستثنى منهم أحداً إلا أن فاروق فؤاد كان كظل لعبدالحليم وكان عبدالحليم صمام الأمان لفاروق، رغم أن كليهما على النقيض تماماً فـ عبودة (عبدالحليم) كان ذكياً وسريع البديهة ويُحسن النظر إلى المستقبل أما فاروق فقد كان يرمى حموله تماماً على الله لم يكن متواكلاً لكنه كان بطيئاً في السعي، ربما كانت طيبته التي ارتوى بها من حليب فُتنة جعلته هكذا.

لم ينقطعا أبداً في وصالهما (عبدالحليم وفاروق) حتى أنه بمجرد وصول ابنى عبدالحليم المرحلة الثانوية كان فاروق هو المسئول عنهما في شئون الدروس الخصوصية ومتابعتهم حتى أنه إن صار هناك فاصلاً كبيراً بين موعد درس وآخر كانا ينتظران في شقة (عمو فاروق).

كان فاروق إخلاصاً يمشى على الأرض لم يتنصّل يوماً من أحد كان قريباً منه في الصغر ولم يُبدّل في سجل علاقاته القوية حسب مجريات الزمن كما يفعل البعض فماذا ترى في معلم كان من صفوة أصدقائه حلاقه الأمين !

كان سلامة أبونصير حلاقاً بدرجة مثقف رغم حصوله فقط على الشهادة الابتدائية وترك المدرسة في الصف الأول الإعدادي فلم يكن

التعليم سهل الهضم على قلبه ولم يكن المعلمون الذين صادفهم يروقون له فلقد كانوا أسُوداً في الفصل وكالحمل الوديع حينما يأتون إلى الدكان طمعاً في حلاقة مجاناً خاصة الأستاذ محمدي مدرس الرياضيات الذى كانت حلاقته تستغرق وقتاً أطول من الحلاقة لثلاث زبائن فقد كان الرجل يهوى (نتف اللحية) شعرة شعرة وعلى (أقل من مهلك يا سلامة يا حبيبي) وبعد الانتهاء كان يستحم بزجاجة الكولونيا الخمس خمسات حتى أن سلامة كان يخفيها عنه إذا استطاع ذلك.

ما جمع بين فاروق وسلامة ربما أن كليهما لديه (فكر) وربما امتزج صفاء قلبيهما وقد يكون لقرب أبو نصير من قلب الجد دوراً في ذاك الرباط والمودة والقرب الذى جمع بينهما.

كان سلامة فصيح اللسان وساعدته المهنة أن يُجيد ويجوّد فإن آتاه زبوناً مثل فاروق أنصت إليه وسأل واستفسر حتى صار يدرك أموراً كثيرة من الصعب أن يدركها حلاق مثله وإن آتاه زبوناً كالغالبية ممن يعيشون حياتهم ليجنوا المال فيطعمون أولادهم وذويهم ولا يهتمون بأي شيء آخر فإنه هنا يجد فيه تربة خصبة لتطبيق ما تعلمه واستوعبه.. وهاتك يا كلام.

بعد موت أبو نصير أغلق سلامة محل البلد واستأجر دكاناً في المدينة وصار يذهب من وقت الضحى ويعود إلى البلد في وقت متأخر من الليل ولّما صارت له علاقات قوية في الشارع الذى يوجد به محل عمله فلقد كان من السهل عليه أن يجد شقة لصديقه الأستاذ فاروق بعد أن قرر الذهاب إلى هناك.

بعد أن تلقّت ست البنات صدمة فراق رقية وابنها عبدالله تعودت شيء ما على البعاد واستطعمت فكرة النهايات القريبة، ورغم أن ابتعاد فاطمة والدكتور طاهر لم يزعجها بل جاء برداً وسلاماً على قلبها، إلا أنك إن اعتدت رؤية شرخٍ في البرواز فلن ترتاح عيناك إن رأته بعد سنين طويلة وقد تم إصلاحه، وظهر ذلك بعد فراق الثانية وابنها أما الأخيرة فلقد حان فراقها بعد شيء من التعود والاعتياد.

كانت طبيعة عمل فاروق كمعلم لغة العربية في مدرسة البنات الثانوية في المدينة وبداية انشباكه في الدروس الخصوصية التي لم يحبها يوماً ولكن (أكل العيش) كان الدافع وراء مغادرة بيت البلد، الرجل يحرص على الذهاب للمدرسة بانتظام ويخرج منها في المواعيد المحددة ، لم يراوغ يوماً

من أجل الغياب أو لأن (يخلع بدري بدري) أو حتى أن (يلقّم) جناب مدير المدرسة مبلغاً نظير أن يتفرغ للدروس الخصوصية فلقد كانت تلك الدروس بالنسبة له وسيلة تساعده على تلبية احتياجات أسرته التي زادت أعباؤها وحتى يطمأن قلبه فلم يعط درساً لطلابه في الفصل لأنه اعتبر ذلك تدليساً وبالتالي لم يحظ بدروس للصفين الأول والثاني وتفرغ للصف الثالث لأنهم (كده كده مابيروحوش المدرسة).

لّما غادر وأسرته الصغيرة تاركاً بيت البلد كان قد استأجر شقة في دور أرضى بناء على رغبة أمه (فُتنة) كشرط للذهاب معه فهى لا تحب الأدوار العليا ولا تستطيع أن تعيش دون أن ترى الشارع ومن ذهب ومن راح.

استأجر بعدها جراج بجوار الشقة كي يعطى فيه دروساً خصوصية فلقد كان من المعارضين لدروس المنازل ليس من باب (الشاي والكيك) وإنما رأى أن طالب العلم لابد أن يسعى إليه وليس العكس حتى إن كانت دروس خصوصية.

كانت مواعيده لا تتعدى خمسة مواعيد يومياً المجموعة عددها عشر طلاب تقريباً ويدفعون بالسعر العادي رغم أن غيره قد اكتظت غرفته بأكثر من ١٢٠ طالب لم يكن فاروق أفلاطونياً لكنه كان يأخذ الأمور بمنتهى البساطة وبثغر دائم الانفراج كأمه إلا أنه لم يكن جاذباً كمعلم مثل آخرين لطالباته التي أصابتهن انهيارات المرحلة فصار منهن من لا تقدر على الفهم والاستيعاب إلا من المعلم ذو (البرفان) الطيب والبنطلون الكذا والشعر هكذا... سبحان الله.

أكبر ألم واجهه في عمله هو طلاب النقل الذين أصيبوا بالفوضى (عن عمد) فصار الفصل مسرحاً للهزل وقلة القيمة، وهو ليس ببلطجي كي يعطيهم على أم رأسهم وليس بـ (دلدول) كي يبتلع الإهانة ومن هنا كانت معاناة الضمير.

تزوج من فردوس زميلته في المدرسة الإعدادية التي عُين بها أول تخرجه وصار لهما الآن فريد وكيلاً للنائب العام الذى كان (نمبر وان) على دفعته في حقوق الزقازيق ولحسن حظه أن أحداً من لجنة الاختيار كان بن

أحد من أصدقاء جده المقربين هذا ما عرفه معالي الوكيل من معالي المستشار فيما بعد.

فريدة هي الثمرة الثانية في شجرة فاروق، طالبة مجتهدة في السنة الثانية في كلية الحقوق أيضاً، وبما أن للشهرة عدوى فللمناصب أيضاً عدواها ومن هنا كان اجتهادها حرصاً منها أن تصير مثل فريد من العاملين في السلك القضائي.

وعلى غرار ابن عمه (أبو البنات) رزق الله فاروق بـــ فادي الذي يبلغ عمره تقريباً عام وعلى الرغم من أن والده فؤاد كان مدلالاً في الصغر وبدا في شبابه أنه كان هوائي الطبع و (ضاربها صرمة) إلا أنه كان الأوفر حظاً بين أخويه في نيل القسط الأكبر من التعليم، طاهر لم يحصل على الابتدائية وعبدون حصل بالكاد على الشهادة الإعدادية بينما هو حاصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) ورغم صدق انطباعات الناس الظاهرية عنه إلا أنه كان كما كانت تصفه خالته الخادمة نظلة (بعيد عنك وعن السامعين أصل عنده فكر) ظناً منها أنه ممسوس أو أن ذلك عيباً لا يجوز أن يلتصق بابن عطا الله وشقيق البهوات.

لم يأخذ فاروق عن فؤاد شيئاً أكثر من كونه (عنده فكر)، أما عن الطِيبة فمن فُتنة وأما الضمير فمن امتزاج هدوء البال والثقافة التي نالت منه ونهل منها وصار فاروق رزانة تمشى على الأرض.

يوم أن خيّره الطبيب عماد طاهر بين الدورين ليختار ويترك الآخر لعبدالله عبدون أبى أن يختار إلا في وجود عبدالله، لحظتها ضمت هويدا شفتيها بغِل من كيد النساء فصار لها (بوز) وما إن حضر عبدالله أقسم فاروق أن الاختيار لن يكون إلا له وحده (الكبير كبير والصغير) فاختار عبدالله الدور الأخير ومن تحته دور فاروق.

يوم وداع فاروق وفُتنة لبيت البلد كان كالعزاء القاصر، أدركت ست البنات أن نهايتها قد حانت وأن أجَلَها قد دنا لكن هذا هو الحال عند الشدائد نتوهّم أن الحياة ستتوقف وأن الغيم واقع لامحالة وعلى الناس هنا أن يستعدوا لأنهم سيُبعثون.

لم تقم القيامة ومرت السنون وعاشت ست البنات وصارت الآن تمتلك في جعبة العمر مائة سهم لا تدرى هل رمت بهم أم أنها تدخرهم كي يرميها بهم أحد في وقت معلوم.

من هو على شاكلة فُتنة وفى مثل سماتها يهوى الاستقرار ويكره التنقل حتماً ستجد في الانتقال للعيش في البرج كرباً وقيداً لكن دفء من حولها هوّن عليها سراب القادم وبالأخص كِنتها (فردوس)، كم كان ثقيلاً وبغيضاً أن تعيش هويدا في برج واحد حتى وإن لم يكن هناك أدنى تعامل مع أنثى تدعى فردوس (فردوس... أووووووف) مسكينة هويدا لو تعلم أن الفردوس هو أقصى الطموح ومنتهاه لمن هو مثلها على ملة الإسلام ناهيك عن أن للفاء سر جمع بين فاروق وفردوس وله سحر قد نال من جميع أفراد أسرتها الصغيرة، لكن هويدا لا تسعى إلى آخرة فتدرك الفردوس ولا هى بقلب مستقيم فتعلم كيف يكون سحر الفاء !

ومن باب الفطنة وحسن الظن أن ألقى فاروق فكرة الاختيار بين الشقتين في ملعب فريد وفريدة لأن الباقين لن يُضاروا في شيء ولن يفرق معهم شيء ويبدو أنه كان يعلم مسبقاً النتيجة، فاختارا أن يعيشا في شقة وبابا وماما وفادى في شقة أخرى، فنظرت فُتنة سريعاً إلى وجه فريد وقد اندفع الجمر من حمرة وجهها واختنقت أحبالها الصوتية (وأنا يا فريد؟)

تعالت ضحكات وكيل النائب العام وأردف: تيته ليها أوضة هنا وأوضة هناك زي ما تحب وكلنا خدامين شبشب تيته

لم تتماسك السيدة نفسها وارتشح أنفها وأزرفت من الدموع سيولاً والتفوا جميعاً حولها وقبّل قدميها معالى الوكيل ورأسها الأستاذ فاروق واحتضنتها فريدة وأبلة فردوس، ثوان وهرولوا إلى الداخل (يالهوي فادى بيعيط).

طالت جلسة ست البنات في (الفراندة)، تناولت الشاي وكوب من عصير البرتقال الطبيعي بين تمديد وفرد قدميها على الكرسي الآخر وبين وضعها على الأرض، مرت ساعات العصاري القليلة وأخذت الشمس تتأهب للرحيل، كانت السيدة حريصة طوال حياتها ألا تراها مُحمرة في كبد السماء لما أشبه بـ العقدة، كان ذلك يذكّرها بمن رحلوا وبما نالته من حظ سيء في زواجها كما كان يذكّرها بانقطاع اختبار النساء الشهري ومن عجائبها أنه حين كبرت وذهب ما كان يدل على أنها لا زالت أرضاً خصبة أيام طمثها وعنائها إلا أنه وفى نفس الأيام من كل شهر كانت تأتيها نفس الأعراض أو ربما هُييء لها ذ لك أو تهيأت هي لذلك، ورغم أنها استُنسخت

من ذاك الجبل العفى ورغم أن تلك الملامح كانت سبباً في استعادة عافيتها من بعد الانكسار إلا أن الأنثى بطبيعتها تحن أكثر مما تأن.

وهكذا كلما رأت قرص الشمس الزائل ذكّرها بجروح تُقلّب عليها ما فات من محن.

أتت خديجة لتأخذ بيدها لتناول الغداء، لقد تأخر اليوم ساعتين عن موعده المألوف حتى لا تصاب بالجوع وهى تحتفل مع الجميع في البرج بعيد ميلادها المائة، كانت ست البنات لا تُفَرِّط في وجبتي الإفطار والغداء كانت تعشق المشويات والفتة والفراخ المحمرة (نص نص) أما الشوربة فكانت تشربها في كوب إلى أن اشترت لها شروق (طقم ماجات معتبر) لأجل عيون تيته.

بينما كانت السيدة مستغرقة في تناول الشوربة وقطع اللحم الطرية (الموزة) فإذا بمذياع المسجد الكبير يعلن وفاة أحد أبناء القرية الذين يعيشون في القاهرة، لقد كان يعمل في سكة حديد مصر ماتت زوجته ولم يرزق الرجل بأولاد ولم يكن له في البلد سوى أخ وحيد من أبيه و كان رجلاً رقيق الحال ولم يكن الأخوَان من عائلة كبيرة ولم يمتلكوا مقابر خاصة

بهم سوى اثنين من (العيون) أحدهما للرجال والأخرى للنساء، يأتي موت الرجل بعد ثلاثة أيام فقط من موت بن عمه الذى دُفن في عين الرجال.

ألقت السيدة بالمعلقة وانتابها حالة من النحيب تصيبها كلما سمعت صوتاً ينادى على من وافاه الأجل، لا تدرى هل كانت تبكيهم أم ترثى نفسها فإن مات أحد و قد تجاوز الثمانين عاماً فهو إذن في عمر أولادها إن كان قد قُدر لها الإنجاب فما بالك إن كان الفقيد شاباً في عمر الزهور! تلك اللحظات كانت تُخرج السموم التي سُمم بها قلبها طوال مائة عام فيتشحرج ذاك النحيب ويصير دمعاً (كاتم للنزول)، جاء الخبر ليصد نفسها ويبطل سحر الأكل على معدتها ... هدأت قليلاً ثم أمرت خديجة بلم الصحون..

- مش هتكملي أكلك يا جدتي؟
- هششششش.....

أُذن للمغرب فغسلت يديها وتوضأت وأدت فرض المغرب وخلدت إلى سريرها لمجرد الراحة فزادت المخدات إلى ثلاثة واتكأت بظهرها وأمرت خديجة ألا تدخل عليها ولا تقلق راحتها إلا قبل صلاة العشاء بقليل.

أغلقت خديجة غرفة النوم واستأذنتها في أن تذهب إلى بيتها كي تضع طعام العشاء لزوجها وأبنائها وحتى ترتدى عباءتها الجديدة التي اشترتها لها ست البنات في العيد الأخير، لقد كانت خديجة المدعو الوحيد لحضور حفل عيد ميلاد السيدة في برج عطا الله ذهبت وسكنت ست البنات على سريرها تستغفر.

- الدوام لله

جلست عروس القرية على ظهر الجمل في (التختروان) والفتيات من حولها يرقصن ويغنين، ألقت بنظرة من أعلى الجمل ولم تصب عيناها إلا من رأت في أعينهم نار الحسد والغيرة كأشعة صُوبت نحوها فأصابتها بدوار في عز فرحتها فأمسكت برأسها ولكن السماء أصدرت برقاً ورعداً مما أزعج

الجمل فترنح وصار جامحاً وألقى بست البنات من أعلاه فالتقفها الدكتور عماد طاهر.

قامت مذعورة من غفوة أصابتها، وعلى حلم ظنته كابوساً لكنها أدركت في لحظتها أن يد ابن أخيها الطيب التقطتها ربما لأنه الوحيد الذى يمتلك الدواء، وعندما تذكرت أنه طبيب نساء وتوليد انهمرت في ضحكاتها المكتومة، لكن ما أرّقها تلك (الشرقة) التي طالما جاءتها في المنام وكادت كما تتصور في لحظتها أن تقضى عليها فتناولت كوب الماء الذى يجاور السرير من على الكومودينو .

أحست بها خديجة التي عادت لتوها واطمأنت عليها وأخبرتها أن الشيخ مروان يطلب لقائها لأمر هام وعلى عجل، فقامت بحذر وبدّلت ملابسها واتجهت إلى غرفة الاستقبال حيث يجلس مروان على الأنتريه الأمريكى فقام بسرعة وقبّل يدها وأخذ بها إلى الكرسي الذى اعتادت الجلوس عليه.

مروان حمّاد كان والده (حانوتي) القرية وكان يتقاضى أجراً على هذا العمل وكانت السيدة منذ ثلاثين عاماً قد أوصت بألا تمس يدا حماد جثمانها

عند إنزالها إلى القبر لقد كان الرجل حشاشاً بدرجة فاخر، لكن قبل خمس وعشرون عاماً مات الرجل وطال عمر السيدة، كان مروان وقتها في الابتدائية وظلت القرية لسنوات لا يُعرف لها حانوتي فأي شخص من أهل الميت أو المجتهدين كان يلعب هذا الدور، وما إن شبّ مروان وتخرج من كلية أصول الدين وتم تعيينه كإمام وخطيب في المسجد القبلي في البلد حتى اختار بنفسه أن يشارك ويتكفل بتكفين الرجال وتَلَقى الجثامين من الحياة الدنيا إلى المستقر الأخير، كان لا يتقاضى عن ذلك أجراً وإنما وهب عمله لوجه الله واحتسبه على روح والده الذى كان حماد يعلم بذنوبه وربما تقبل الله منه وتأمّل في وجه الكريم أن يخفف عنه ما جنته يداه، حتى أن من رأى حماداً وما اقترفه أباه في حياته استغفر له بعد مماته لأجل ابنه مروان.

وولد صالح يدعو له

أخبرها الشيخ مروان أن الرجل المتوفى قادم من القاهرة الآن في الطريق، وأن أخاه الوحيد في حيرة لأن العين الوحيدة الخاصة بالرجال في المقبرتين خاصتهم قد دُفن بها أحد أبناء عمه منذ ثلاثة أيام فاستسمحها في أن يُدفن في مقبرة من مقابر الصدقة التي شيدتها السيدة:

- اسمها طُرب ربنا يا شيخ مروان
- طُرب ربنا يا ست الحاجة... أستغفر الله العظيم

كانت ست البنات في عام ١٩٧٣ قد أصيبت بحمى خطيرة قالوا أنها كانت شوكية وكادت تعصف بحياتها حتى أن البعض كان يمزح أن فرحة الانتصار في الحرب لم تحتملها السيدة لكنها حين تعافت بعد ثلاثة شهور حرصت على توسعة المقابر الخاصة بأسرة عطا الله وزادتها إلى أربعة عيون للرجال ومثلها للسيدات وبجوارها عينين للرجال ومثلها للنساء على سبيل الصدقة والتقرب لله رب العالمين حتى يُدفن فيها من لم يجد له مأوى بعد موته كانت تسميها (طُرب ربنا) وكم من أناس شَيدوا في الدنيا وأحسنوا التشييد وتناسوا أن القبور أولى وأن الآخرة خير وأبقى.

أخرجت سلسلة المفاتيح من (سيالتها) وأعطتها للشيخ مروان وطلبت منه أن يفتح دولاب الفضة ويأتي لها بالعلبة، لقد كانت تضع مفاتيح البوابة التي تضم مقابر العائلة وطُرب ربنا في علبة الذكريات، أخذها مروان ووضعها أمام السيدة فأعطته المفاتيح ولّما أراد إرجاع العلبة

إلى الدولاب كما كانت نهته وطلبت منه أن يتركها فلها في بقائها غرض فشكرها ودعا لها بطول العمر والأمد ووافر الصحة، وقام واتجه للتجهيز لحفر المقبرة في الصباح الباكر لأن موعد الدفن في العاشرة صباحاً.

مدت يدها إلى العلبة وعادت لتمسك بخاتم أبيها الذهبي الذى يصل وزنه إلى ٣٠ جرام وأغلقت العلبة وأودعتها في دولاب الفضة في أمان، ووضعت الخاتم في علبة من القطيفة الكحلي كانت لديها في الدولاب وخرجت إلى (الفراندة) وأحسّت أنها تحتاج إلى نصف فنجان قهوة آخر في هذا الوقت ربما حتى تصمد أمام سهرة الليلة، أتت خديجة بـــ (السبرتايه) وشردت السيدة قليلاً وهى تقلّب القهوة في الكنكة النحاسية فلقد قررت أن تتنازل عن خاتم عطا الله لأحد الرجال الثلاثة، كانت تقصد واحداً منهم بعينه، خشيت أن تموت ويتصارع الرجال حول الخاتم إما بوازع اقتنائه من أجل المفاخرة أو بدافع الحصول عليه من أجل السيطرة وربما لا لهذا ولا ذاك فقد يكون ضرباً من كيد النساء.

تنبهت فأودعت الكنكة النحاسية على (السبرتايه)، فلما استوى غليها صبت نصف فنجان (بيشه) وارتوت منه فأُعيد ترتيب أفكارها فاسترخت بظهرها إلى الكرسي وأحست بـ (همدان) لا يصل إلى حد الغفوة لكنه مجرد همدان.

مهما طال بك العمر فأنت على يقين أن النهاية محتومة ومهما كنت صالحاً تعطى أكثر مما تأخذ سيأتي اليوم الذى تنتظر فيه الحصاد، ومهما عشت عمراً تطبب فيه جرح الآخرين فلا بد أن يأتي اليوم الذى تُعلى فيه من ذاتك ربما بمنتهى الأنانية تعويضاً عما أعطيته للآخرين وللزمن.

مائة عام عاشتها ست البنات لم تفكر في نفسها إلا مرة واحدة حينما اختارت مصطفى علاّم ولما خابت خيبتها الأولى قررت وبحسم أن لا تخيب مرة أخرى، ذاك الشعر الأبيض الذى احتل رأسها تمام الاحتلال منذ أكثر من ٣٥ عام ظل يذكّرها بأنها ملكة متوجة على العرش وأنها كانت الأحق بسيف عطا الله، ضيق عينيها وملامح أبيها التي نعمت بها كانوا يخبرونها أنهم رحمة من القدر الذى حماها وأطال في عمرها من بعد إخوانها حتى يكبر

الصغير ويعقل القاصر، ذاك العكاز الأبنوس أعطاها درساً أن القوى إن سقط منه عضو فالله يعوّضه بما يجعله أقرب إلى الكمال.

الكوابيس التي طالما طاردتها كانت تؤرق صفو حياتها، فالجدار الذى حطم فقرات ظهرها كاد أن ينال من صبرها، ووجه فاطمة في كابوس آخر وهى تقضم فخذها بأسنانها الحادة كان يؤلم فخذها في الحقيقة بعد الاستيقاظ، لكن آخر أحلامها بث فيها أمل وطموح غريب لمن بلغ أرذل العمر، فكونها كانت عروساً ألهمها أن الجنة لها بإذن الله وستأخذ حظها ونصيبها كأنثى أفضل وأكرم مما نالته في الدنيا، وأن البرق والرعد كانا نذيرا شؤم إلا أن عماد الذى التقطها نذير خير، تعجبت قليلاً لماذا عماد بالتحديد؟ فَسّرت ذلك ربما لأنه طبيب وربما لأن الدم (عمره ما هيبقى مية).

خديجة وقد ارتدت العباءة الجديدة:

- هنمشي إمتى يا جدتي... جدتي

انتبهت السيدة فرأت العباءة الجديدة فابتسمت:

- الله حلوة قوى العباية يابت

- تسلمي يا جدتي
- بعد صلاة العشا إن شاء الله هتعدي علينا شروق بعربيتها
- يالهوي.. ست شروق بتجري وأنا بخاف أركب معاها

قهقهت السيدة بهدوء متقطع :

- وهو أنا مش هخاف على نفسى يا بت وأنا لسه شابة وزى القمر

تعالت ضحكات خديجة فباغنتها السيدة:

- ضربة في بطنك بتضحكي على إيه

وأرادت ست البنات أن توقف ضحكاتها لأنها كانت من ذاك النوع من النساء اللاتي إن ضحكن فلا (فرامل لهن)، حدثتها عن الأسانسير:

- يا حزني يا أمه

فكانت القهقهة هذه المرة من نصيب السيدة:

- وهو أنا مش هخاف على نفسى يا هبلة خدى بإيدي أتوضى وأستنى فى الأوضة شوية

- حاضر يا جدتي

توضأت السيدة وخلت إلى نفسها في غرفتها وجلست على سجادة الصلاة وبدأت وِرد دعاء قبل الصلاة كالذي تتمتم به في الفجر، دعت للجميع وعمت بالدعاء الناس جميعاً، ثم استقبلت فرض العِشاء فصلّت وحمدت الله حمداً كثيراً.

بدلت ملابسها وارتدت أجمل جلابية سمراء من الحرير، ووضعت من ذاك البرفان الذى أهداه إليها فريد حينما عُين وكيلاً للنائب العام ونادت على خديجة لتأخذ بيدها والعكاز الأبنوس في اليد الأخرى، حتى تستعد لقدوم شروق لاصطحابها إلى برج عطا الله حيث الاحتفال، أوصت خديجة بأن تغلق الأبواب جيداً وأنبوبة البوتوجاز..

- كله على سنجة عشرة يا جدتي

ورغم أن صاحبة المائة عام كانت بعقلية تستطيع أن تستوعب تطورات كثيرة إلا أن الموبايل لم يروقها أبداً كانت تكتفى بالتليفون الأرضي الذى تعودت عليه واعتادته منذ أكثرمن ٦٠ عام، فطلبت من خديجة أن

تتصل بشروق لتعلم أين هي الآن فأخبرتها أنها في مدخل البلد، لقد كانت خديجة (لبلب) في استخدام الموبايل الـ touch الذى اشترته لها ست البنات، ثم أغلقت خديجة الباب الرئيسي وانتظراها في (الفراندة).. ثلاث دقائق وهلت شروق بكلاكس سيارتها الرينو، كانت شروق (عفريتة سواقة) وكلاكس سيارتها كان بحق مزعجاً، نزلت من السيارة وأخذت بيد (تيته) مع خديجة وأركباها السيارة، واتجهت شروق في طريقها إلى البرج.

- البرج جاهز للاحتفال

الطريق من بيت عطا الله في وسط القرية حتى الخروج منها تقريباً يصل إلى ١٥٠٠ م، أصبح اجتيازه يحتاج إلى دقائق أكثر بسبب تزايد الكثافة السكانية وتلاحم المباني التي أصابت القرية المصرية بتخمة فصارت مسخاً فلا هي ظلت على فضفاضية القرى ولا هى تبدو في هيبة المدن.

دست ست البنات يدها في جيبها ظناً أنها نسيت الخاتم، فتأكد لها وجوده فحمدت الله بصوت عالي

- (خير يا تيته يا قمر)

- بحمد ربنا يا بنتي بحمده
- دايماً يا تيته
- تسلمي يا حبيبتي.
- ألا قوليلي يا شوشو العربية دي بكام يا حبيبتي؟
- بـ ٣٢٠ ألف يا تيته
- ضربت خديجة على صدرها... ياهوي يا ست شوشو
- اسكتي يا عبيطة
- حاضر يا جدتي
- وأبوكي دفع كام من تمنها؟
- ولا جنيه يا تيته أنا جايباها قسط على ٥ سنين من غير فوايد ودى بقى من مميزات الشغل عندنا...
- ربنا يكفيكي شرها ويديكي خيرها يا حبيبتي
- يارب يا تيته يا قمر

كلما سنحت الظروف أن تذهب السيدة خارج البلد كانت تدقق فيما جرى على الأماكن من تغيير، فالقرية التي كانت في الستينيات حدودها بعد بيت عطاالله بـ ٢٠٠ متر امتدت أطرافها لأكثر من ١٥٠٠ متر من جميع الجهات، هنا كانت ساقية موريس، لم يعد لها أثر وقد حل محلها نقطة الشرطة، أما أبناء عم موريس وأحفاده فاستوطنوا الإسكندرية، وهنا كانت قراريط علاّم التي صارت بيتاً فسيحاً لأحد محدثي النعمة يقولون أنه (حرامي آثار قد الدنيا).

ذات يوم بعد طلاقها من علاّم بستة أشهر تقدم لخطبتها الحاج مصطفى عرفان تاجر كبير من تجار القاهرة تخطى عمره الخمسين، وكادت أن توافق في لحظة ضعف منها. حتى تغادر القرية وتقضي على ما ألمّ بها من ذكريات سيئة، إلا أنها سرعان ما انتبهت فرفضت وتم القبض على سي الحاج مصطفى بعدها بثلاث سنوات بتهمة قتل راقصة فلقد كان الرجل صاحب مزاج .

في منتصف الطريق كادت شروق أن تصطدم أحد المارة الذى عبر الطريق فجأة لكن الله سلّم (الفرامل الجديد شديد)، كان المار أمامها هو (سعد بَلالة) الذى أنعم الله عليه بذهاب العقل بلا عودة، ولد هكذا وعاش هكذا واستولى إخوته على ميراثه بينما لم يسلم من حسد الناس على الجنة التي سينالها دون حساب.

حينما كانت ست البنات في الستين كان هو شاباً في العشرين كان يأتيها يومياً فيجلس بجوار سور البيت من الداخل بجوار البوابة ويكتفى بكوب الشاي وقطع الجبن كان نهماً في أكل الجبنة الفلاحي ولا يأكل سواها تقريباً، وبمرور السنوات احتجزه أخواه بعد أن تخطى الأربعين (الناس كلت وشنا) وأقل من ستة أشهر واستحوذا على أرضه من أبيه ونصيبه في البيت وعاد إلى الشارع لكنه لم يعد إلى بيت عطا الله.

التفت إلى السيارة وصار وجهه مباشرة في وجه ست البنات فابتسم لها ابتسامة العمر واقترب منها بثقل حركات المسن فربتت على كتفه ومدت يدها في (السيالة) وأخرجت له ٢٠٠ جنيه ورقة واحدة فأطال التبسم في وجهها وانصرف دون أن يمد يده ليأخذها... حكمتك يارب.

عاودت شروق سيرها بالرينو ، وسألت تيته عن (سعد بَلالة) فأخبرتها وقبل أن ينتهى مشوارها الطويل في البلد شردت تيته قليلاً وهنا تيقنت السيدة أن العمر إن زاد عن حده كتم على صدر صاحبه وأصابه بضيق لا ينفرج إلا بلقاء الله وأن الأرض إن تكاتل البشر عليها وازدحمت طرقاتها بالمباني فإنها تضيق بهم ولا ينفرج همها إلا بزوالهم جميعاً حتى يصير البناء من جديد (على نضافة).

كانت شروق تعلم مزاج تيته وما يسعدها وقد شاركتها نفس المزاج فأدارت فلاشة الأغانى على (ودارت الأيام) فنظرت إليها تيته بابتسامه رضى وخديجة تبتهج:

- الله يا ست شوشو الله

في أول الطريق إلى المدينة توجد الخمسين فدان ملك أسرة عطا الله ومسجلة قانونياً باسم ست البنات، قطعة على يمين الطريق تصل إلى ٣٨ فدان والأخرى على اليسار تصل إلى ١٢ فدان تلك المساحة قد زاد ثمنها في الأعوام الأخيرة لأنها تقع على طريق رئيسي يربط محافظة الشرقية بالدقهلية،

آخر تقييم لها كان بـ ٤٥٠ مليون جنيه حاول كثيرون ممن أرادوا غسل أموالهم وتنظيف سمعتهم أن يشترونها وبأي ثمن لكن السيدة ليست في حاجة إلى بيع كما أنها لن تقبل أن تصبح أرضها مسحوق يُنظف به روث البشر من الخائنين والفاسدة قلوبهم.

الطريق إلى المدينة بدا موحشاً هذه المرة منذ آخر مرة مضت عليه السيدة منذ عامين حينما كانت في مشوار ضروري إلى بنك التسليف الزراعي، لم يتغير عما كان عليه منذ عامين لكنها هذه المرة كانت أكثر تدقيقاً فيما حولها وتفنيداً لما تراه، ظهرت على جانبي الطريق عدة مباني متفرقة وبعض الورش والمصانع الصغيرة ولا يخلو بيت من تلك البيوت غالباُ من وجود محلات في الدور الأرضي واقُتطعت منه قطعة وحل محلها زاوية صغيرة يبدو أن الأزمات المفتعلة تقوّى من إيمان البشر.

ما رأته أثار بداخلها مشاعر ألّبت عليها سخافة شيخوختها التي طالما أحبتها وأدركت أنها نعمة من الله (اللي يحبنا يعيش زيينا) لكن في لحظة أُلهب قلبها بسوط قاسى فبدا لها الزمان غير زمانها والأيام ليست بأيامها حاولت إغماض عينيها حتى تسترد عافية بصيرتها وقلبها لكنها أدركت أن

الحقيقة أمامها واضحة على الأقل فيم تبصره عيناها ولكن يبدو أن بيت عطا الله لا زال حصناً حصيناً لها من عثرات الأيام وزلزال التغيير الذى أصاب البلاد والعباد بالضربة القاضية.

كانت هويدا إلى جانب السمسرة والسيطرة تجيد فن (العلاقات العامة) خططت جيداً للحفل ورفضت بذوق مصطنع مساعدة فردوس وإيمان بدعوى أنها صاحبة الدعوة والفكرة من الأساس:

- علشان خاطري سيبوني أرد جمايل عمتو يا حبيبتي يا عمتو إهىء إهىء إهىء

أرادت أن تستقبل السيدة العجوز استقبالاً ملكياً فأوقفت اثنتين من الممرضات إحداهما تحمل الورد الأحمر والثانية تحمل البنفسج واصطف طاقم التمريض في مدخل الأسانسير على الجانبين لاستقبال (عمتو) والتصفيق لها تهنئة على بلوغها قرن من العمر.

أما الاحتفال فبالتأكيد في شقة الطبيب عماد فهى أكثر رحابة لأن هويدا قامت بفتح الشقتين على بعضهما وافترشتها بكل ما هو فاخر (مودرن

وستيل)، واستعانت هويدا بمنظمة حفلات ماهرة من أولئك المتاحين على الإنترنت فأبدعت بحق، البالونات المائة التورتة، التي تحمل صورة (عمتو)، المضمار من بعد باب الشقة حتى صالون الاحتفال، صورة ست البنات التي تصل الي ٢.٥ متر × ١.٥ متر بألوانها الزيتية حيث قام برسمها محترف تكلفت نحو ٢٠٠٠٠ جنيه.

... البرج جاهز للاحتفال

استقبلت السيدة العجوز مدخل المدينة، دقائق قليلة ومن المفترض أن يصلوا بعدها إلى البرج لكن الزحام الذى أصاب الشوارع مدّ الدقائق إلى ربع ساعة، الأضواء عالية السيارات كثيرة منها ما يسير أمامهم ومنها من يزعجهم من الخلف ومن هو على الجانبين راكن صف ثان وثالث، ولأن المدينة لها سحر برّاق لا تتخلص منه إلا إذا غادرتها، فقد انبهرت قليلاً مما غافلها مؤقتاً عما آلمها في رحلة المجيء، وصلوا إلى برج عطا الله الذى تزّين في استقبال السيدة.

سارع الثلاثة عماد وعبدالله وفاروق للأخذ بيدها كي تهبط بسلام من الرينو، أراد عماد أن يمزح :

- أشيلك يا بطة؟ قهقهوا جميعاً
- يوه جتك إيه يا عماد ربنا يسعدك يابني

وببطيء أخذوا بيديها إلى السلم ولّما اقتربت من الأسانسير أحاطتها الممرضات بالتصفيق والتهليل وقدمن لها الورود فأحست وكأنها الملكة فريدة أما هويدا فطبعت على خدى السيدة قبلات سمع الجميع طرقعاتها حتى أن (الروج) ترك أثراً على خدى العجوز يبدو أنه كان مغشوشاً (مش براند).

انطلقوا جميعاً في الأسانسير الكبير فارتبكت خديجة وتغيرت ملامح وجهها فوخذتها السيدة في كتفها: كلنا في الهوا سوا يا بنت الهبلة

فاحمر وجهها خجلاً وقهقهوا جميعاً وصل الأسانسير إلى نهاية رحلة الصعود وكان باب الشقة مفتوحاً تقف أمامه فردوس وإيمان وسلمى أما الباقون فهم بصحبة السيدة، عناق الأحبة وقبلات الشوق وأسمى آيات

الترحاب من الجميع في حضرة عمتو، اخترقت المضمار حتى استقرت واستقر الجميع في الصالون وبدأ الاحتفال .

تلفتت السيدة فأحصت الغائبين، سألت عن فاطمة فردت هويدا أن (ماما فاطمة) قد تناولت دواء الأعصاب الذى يهمّد جسدها ويلقيها على السرير دون وعى وأنها ومن شدة حرصها قد أحكمت إغلاق الباب من الخارج بالمفتاح حتى تأمن (ماما فاطمة) الذئاب البشرية من الخارج فتصبح آمنة مطمئنة.

- ربنا يشفيها لأجل جاه النبي

ولما استفسرت عن غياب فادى فأجابتها فردوس أن طبيب الأنف والأذن منعهم من أن يحضر الولد أفراح أو حفلات بها ضوضاء لأنه مصاب بثقب في طبلة الأذن.

أما جويرية فقد كان اليوم هو ميعاد تطعيمها وبعدها تصاب بحالة من (القرفة والزن عمال على بطال) لذلك تركتها إيمان مع والدتها.

دعت لها السيدة بطول العمر والسعادة ولفادي بالصحة والعافية

وكان من الغائبين عن الحفل ابنا عماد وهويدا (مدحت وأحمد) لكن لا داعى للسؤال عنهما فقد كانا خارج البلاد حيث أنه لّما يأست هويدا من ابنيها اللذان تعثرا في دراسة الطب والهندسة (الخاصة) فما كان منها إلا أن أرسلتهما إلى أوكرانيا لإنجاز المهمة لكنها لم تدرك أن (خايب هنا أخيب هناك).

التف الجميع حول التورتة وتيته جالسة، غنوا لأبو الفصاد احتفالاً بذكرى ميلاد السيدة العذراء ثم قاموا بإطفاء تلك الشمعة الوحيدة التي انتصف التورتة... هووووف .

تناوبوا عليها يقدمون أخلص التهاني وفروض الولاء والطاعة والامتنان على ما بذلته من جهد في الحفاظ عليهم وما يملكون من بعد آبائهم الثلاثة وجدهم عطاالله محجوب، وتوالت هداياهم بأيدي الزوجات، قدمت لها فردوس عكاز جديد يقال أنه أثرى ابتاعته شروق من أحد مزادات القاهرة، ثم أهدت لها إيمان ثوباً أسوداً صُمم لأجلها فإيمان تعرف قياسها جيداً زد على ذلك أن سعر المتر من هذا القماش يبلغ ١٨٠٠ جنيه.

والختام من ذهب رفعت هويدا حاجبها الأيسر وخطت نحوها في دلال وطال عنقها من زهو المفاخرة وفتحت علبة تحتوى على سوار من الذهب المرصع بحبات من الماس:

- اتفضلى يا عمتو يا حبيبتي والله اشترتها بـ ١٥٠٠٠٠ جنيه والجوهرجي نشف ريقي بس مش خسارة فيكي يا قمر...قلبي يا ناس
- ربنا يسعدك يا بنتي

إيمان وخزت فردوس في جنبها وكتمن ضحكاتهن المستترة أما خديجة فلا زال فهمها مفتوح من بلاهة المفاجأة.

استقروا وهدأوا وقطعوا التورتة وأكلوا وشربوا وتعالت الصيحات وصفقوا جميعاً إلا فريد بيه الذى اكتفى بالابتسام واحتضان تيته بين حين وآخر.

ولأن الغريب مهما طالت رحلته فلا غنى عن عودة يستقر بها وتقرّ بها عيناه ولأن الوقت قد طال أكثر من المتوقع ولأن عمتو قد أُنهك جسدها فوجب إذن الرحيل، تسارعوا في طلب أن تبيت معهم لكنها أبت بحسم فلم يجادل أحد سيف عطا الله فخففوا الطلب إذن وتسابقوا حول من يوصلها إلى البلد وهنا أطلق الطبيب يمين طلاق على أنه لن يوصلها أحد إلا هو وهويدا:

- مش كدة يا حبيبتي
- طبعاً يا حبيبي ... بعد أن (زغرت) له بعينيها العسليتين (اللانسيز وسنينه).

خارت عزائمهم أمام يمين الطلاق واستأذنوا في الانصراف بعد أن وعدهم الطبيب بتوصيلها بعد أن يبدّل ملابسه التي غمرها عرق المحبة والإخلاص، لكن السيدة قاطعته وأخبرتهم أنها ستشرب القهوة في شقة عبدالله في حضور فاروق وطاهر بعد أن يبدل ملابسه، امتثلوا وبادرت شروق (أحلى قهوة لعيون تيته).

لا زالت خديجة في حذر واندهاش حتى بعد أن ذهبوا، أمرتها هويدا أن تنزوي في المطبخ حتى تتحدث مع عمتو في أمر هام .. حاضر يا ست هويدا.

- خير يا بنتي...
- خير كتير قوى قوى يا عمتو

كانت هويدا قد أقرت بأفضلية الذهاب إلى القاهرة وتحديداً إلى التجمع الخامس ونقل نشاط الدكتور كاملاً إلى هناك وقد قررت وأقر معها الدكتور تشييد مستشفى ضخم في المكان الذى وقع عليه اختيارها ورغم أن هذا سيكلف كثيراً جداً لكنه سيجنى الأكثر والأكثر، المليون الذى يتحقق هنا يتحقق أمامه عشرة أو ربما عشرين هناك، هنا لا زالت رائحة الفقراء تعكر صفو النخبة وربما خشوا من حسدهم وحقدهم، أما هناك فالراية واحدة يستظلون بها دون فقير يمد يده يسأل أو محتاج اعتاد الذهاب للمستشفى الميري فيؤرقهم بمُحنه حينما يأتي في الاستقبال ويعجز عن الدفع

وما ينالون سوى السباب واتهامهم بالقسوة وانعدام الضمير وينتهى الأمر بالذهاب إلى قسم الشرطة .. فهم إذن في غنى عن ذلك كله.

كانت بالفعل هويدا (السمسارة) قد اشترت أرضاً في التجمع منذ سنوات تصل لأكثر من ٢٥٠٠ متر وبسعر ممتاز كانت علاقاتها قد امتدت وسطت على بعض المسئولون وسكة أبو زيد لا تخلو من المسالك.

العقبة الوحيدة كانت التمويل، وبالطبع جنى الطبيب ملايين وزوجته حصدت الملايين وتخطت حصيلتهما معاً الـ ٥٠ مليون جنيه، لكنها ليست كافية أبداً لتشييد صرح التجمع الصحي العملاق اللذان انتويا إقامته (هويدا كلينيك)، ولأن الأرض التي سيرثها الرجال الثلاثة يتخطى الآن ثمنها الـ٤٥٠ مليون جنيه فإن نصيب الدكتور لن يقل عن ١٥٠ مليون ومن هنا كان هذا الاحتفال بعيد ميلاد عمتو.

ثارت ضحكات السيدة العجوز واختنقت دموعها فأحست بتلك (الشرقة) التي تؤرّق نومها فمدت يدها بصعوبة وارتشفت من كوب الماء لعلها تجد دواء لصبرها الذي طُعن في مقتل.

- إيه رأيك يا عمتو حبيبتي ؟

استأذنتهم في الانصراف، فأحست هويدا بأن السيدة تستهزأ بها قالت فحايلتها للحظات ولّما رأتها متمنعة غمرتها بسيل من القبح والتوبيخ بما لم تشهده منها ولا من غيرها من قبل ولّما غمز الشيطان لهويدا غمزة الذروة اقتربت منها:

- عايزه مننا إيه يا شيخه اللي زيك غار من زمان

ولأنها سمسارة والسمسار مقامر فرغم صبره الطويل كذئب يتمهل للقض على الفريسة إلا أن الخسارة إن كانت فادحة فإنها تحوله إلى كلب مسعور لا يميز بين طيب أو خبيث، وإن ثار البدن بالنيران فالأيادي تصبح سوطاً يجلد، امتدت يداها إلى عنق السيدة التي فار وجهها ويد تقاوم والأخرى و كأنها تؤمّن على (السيالة) ولما انتفضت عروق جبهتها انفك اشتباك حاجبيها واغرورقت عيناها بالدماء، طاهر من على بُعد:

- حرام عليكي يا هويدا.... اخرس أنت

أتت خديجة وهى تلقى بصيحات كالتي تطلقها النساء في المآتم (صويت):

- الحقيني يا ستي العمارة بترقص

أدرك طاهر الخطر فصاح (زلزال) تركت هويدا رقبة السيدة وبصقت عليها وفرت، بينما خديجة أنقذت السيدة وقدمت لها الماء وهى تسعل من تلك الشرقة التي تألفها، فرت هويدا و طاهر والجميع في كل الأدوار وتسارعوا في ركوب الأسانسير ومن لم يستطع لم ينتظر وسارع في الهبوط على درج السلم لكن ثواني قليلة جداً وصار البرج كومة من أحجار لقد كان الزلزال بقوة ٦.٥ ريختر أُحيل بعدها صاحب شركة المقاولات التي نفذت البرج إلى السجن بتهمة الغش حيث أن أحد عشر برجاً مما شيدهم قد سقطوا مع أول اختبار حقيقي لكن هيهات.... قُضى الأمر.

(ومن أحياها كمن أحيا الناس جميعاً) صدق الله العظيم

٦/ ١٠/ ٢٠٤٥ اكتظت قاعة الاحتفالات في الدور الرابع في هذا المجمع الخيرى الضخم، تهامس بعضهم إلى بعض عن البرج الذى انهار في الزلزال في ٢٠٢٠ ومضت الأيام وصار مجمعاً خيرياً ضخماً يشتمل على كافة المصالح الخدمية التي أُريد به رضى الله على هيئة مساعدة فقراء الله، ارتسمت ملامح الفرح على المجمع من الخارج الذى حمل عنوان (مجمع ست البنات عطا الله الخيرى) وعلى باب القاعة كُتب :

حفل زفاف

المهندس فادى فاروق فؤاد عطا الله

و

الدكتورة جويرية عبدالله عبدون عطا الله

تمت بحمد الله وتوفيقه

هاني خليفة